

اقرأ

الدكتور أحمد أمين

المعمل كفاءات

في الإسلام



دار المعارف

اقرأ

[١١١]

المملكة والفتوة
في الإسلام

الدكتور أحمد أمين

المعمل كنه والفتوة في الإسلام



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

في حوالي سنة ١٩٣٨ م لفت نظري وأنا أقرأ الأغاني في ترجمة حنين بن إسحاق كلمة عن الفتوة فهمت منها أن لها نظاماً خاصاً وأن للفتيان في كل بلد مكاناً يجتمعون فيه ويسأل عنهم الغريب ويقصدهم ، فتابعت في الأغاني وغيره الحديث عنها . ثم رجع ذهني إلى الجاهلية فتصفحنت بعض كتب الأدب وخصوصاً ديوان الحماسة والمفضليات وكيف استعملوا كلمة فتوة استعمالات مختلفة . ثم رأيت أن الصوفيين وضعوا في أشهر كتبهم باباً للفتوة أبانوا فيه معناها . ثم كان أن قرأت رحلة ابن بطوطة فرأيت أنه أثناء رحلته في البلاد التركية يشيد بذكر الفتوة فيها ويبين إكرامهم للضيوف ومعاملتهم بعضهم لبعض ثم عرضت لكلمة الفتوة في العصر الحديث .

كل هذا دعاني إلى أن أبحث في الفتوة وأتبع معانيها في العصور المختلفة من العصر الجاهلي إلى اليوم . فكتبت في هذا

الموضوع بعض ما حضرني . وألقيت إذ ذاك محاضرة في دار الجمعية الجغرافية ، ونشرتها عقب ذلك كلية الآداب في مجلتها بمجلدها السادس الصادر في مايو سنة ١٩٤٢ م ، وأخيراً اتجهت إلى أن أزيد فيها بعض ما عثرت عليه وأضمنها رسالة صغيرة هي هذه التي أقدمها للقراء .

ثم كان وأنا أبحث هذه الفتوة أن رأيت علاقة كبيرة ولو علاقة تناقض بين الفتوة والصعلكة فكلاهما يؤدي معنى إنسانياً ، وإن كان (الفتيان) تدل على أولاد الذوات و (الصعاليك) تدل على أولاد الفقراء .

وقد لفت نظري يوماً ما ديوان سيد الصعاليك عروة بن الورد فقرأته وأعجبت منه بالصعاليك على العموم حتى كتبت مقالا في مجلة الثقافة عن عروة بن الورد هذا والصعاليك قبل سنة ١٩٤٤ م . ثم قرأت رسالة قيمة لطالب من طلبتي عن الصعاليك في العصر الجاهلي أعدها يوسف عبد القادر خليف أفندي في الصعاليك عند الجاهلية ، فأعجبني وأعجبني موضوعها فقرأتها واستفدت منها . وتتبع موضوع الصعاليك في الإسلام وهذا في

التفكير إلى أن حلف الفضول كان نتيجة لهؤلاء الصعاليك ولولاهم لم يكن ما أبنت في الكتاب .

وعملت كيف وقفت الصعلكة في صدر الإسلام وأسباب وقوفها وكيف ظهرت في العصر العباسي على شكل آخر إلى اليوم أيضاً ، فكان من البحث في الفتوة والصعلكة هذه الرسالة .
فأشكر كل من كتب في هذين الموضوعين ووصلت إلى أبحاثهم واستفدت من مجهودهم والله المعين .

أحمد أمين

٢٣ نوفمبر سنة ١٩٥١

الفتوة في الجاهلية

لكل كلمة تاريخ يشبه تاريخ البلاد ، وتاريخ النظم السياسية ، وتاريخ الأشخاص ، وتاريخ الكلمات قد يكون معقداً ملتوياً غامضاً ، كما يحدث في غيره من أنواع التاريخ . ويجتهد الباحث في استعراض النصوص الكثيرة في العصور المختلفة ليستخلص منها تقلبات الكلمة في أوضاعها المختلفة . وهذا ما أحاوله في كلمة الفتي والفتوة والصعلكة والصعاليك .

الفتوة في الأصل معناها الشباب ، قالوا فتيّ يفتى ، أى صار شاباً . وقالوا هو فتيّ السن ، بينُ الفتاء .

وقد ولد له في فتاء سنه أولاد أى في شبابه . وأصل كلمة فتي مصدر فتيّ فتيّ ، كمرح مرحاً . ثم جعلت وصفاً فقالوا « هو فتي ، أى شاب » وجمعوا الفتي على فتيان وفتو وفتية . والاسم من ذلك كله « الفتوة » ، ووصفوا بالفتوة الإنسان والحيوان . فقالوا إن الأفتاء من الدواب ، بخلاف المسان . وقالوا

للشباب فتى ، وللشابة فتاة .

ثم نراهم نقلوا الكلمة نقلة أخرى ، فاستعملوها للدلالة على لقوة لأن الشباب عنوان القوة . قال ابن قتيبة . « ليس الفتى بمعنى الشباب والحدث ، إنما هو بمعنى الكامل الجزل من الرجال . يدل على ذلك قول الشاعر .

إن الفتى حمال كل ملعة ليس الفتى بمنعم الشبان

* * *

ويقول آخر :

يا عز هل لك في شيخٍ فتى أبدا وقد يكون شبابٌ غيرَ فتیان

* * *

فالقوة على هذا معناها القوة ، لأن الشباب مصدرها عادة ومن هذا المعنى على ما يظهر تسميتهم الليل والنهار باسم الفتیان ، ومن أقوى من الليل والنهار في إذلال كل عزيز وإضعاف كل قوى ؟

ومنه قول الشاعر :

لم يلبث الفتیان أن عصفا بهم ولكل قفل يسرا مفتاحا

* * *

ثم من أحقّ منهما بأن يسميا فتيين ، وقد سميا قبل
بالحديدين ؟

وفتوة الناس مرحلة قصيرة المدى ، وفتوة الليل والنهار
متجددة أبداً .

ثم رأيناهم نقلوا معنى الفتى نقلةً ثالثة ، كالذى قال الجوهري :
« الفتى السخى الكريم » ولكن فاتته أن يقيد ذلك بالشباب .
ومثل ذلك ما قال الزمخشري . « الفتوة هي الحرية والكرم » .
قال عبد الرحمن بن حسان :

إن الفتى لفتى المكارم والعلا ليس الفتى بمُعَمَّلَجِ الصبيان

* * *

وكأنهم لما لاحظوا في الفتوة الشباب والقوة ، لاحظوا أن
القوة أكثر ما تستمد في وسطهم من الكرم والحرية .
ويظهر أن الكلمة أصبحت في هذا الطور خاضعة للبيئات
المختلفة فتلبسها كل بيئة ما تراه المثل الأعلى للفتى ، فطرفة مثلاً
يرسم لنا صورة للفتى كما يتصورها هو وبيئته فيقول :

إذا القوم قالوا من قتي خلت أنى عنيت فلم أكسل ولم أتبلد
أحلت عليها بالقطيع فأجذمت وقد نخب آل الأمعز المتوقد
فدالت كما دالت وليدة مجلس ترى ربها أذيال سجل مهدد
ولستُ بحلال التلاع مخافة ولكن منى يسترفد القوم أرفد
فإن تبغى في حلقة القوم تلقى وإن تلتسنى في الحوانيت تصطد
وإن يلتق الحى الجميع تلاقى إلى ذروة البيت الشريف المصمد

* * *

فطرفة يعد نفسه مثلاً أعلى للفتى لاتصافه بأوصاف لا بد
منها لمن نصب نفسه ليكون قتي . وهى أنه أولاً إذا ما سأل القوم
عن قتي ينبجدهم في الملمات ، لم يجدوا الفتوة متوافرة في أحد
توافرها فيه ، لأنه سرعان ما يهوى إلى ناقتة يضربها بالسياط
لتسرع في السير للإئتجاد . فتبخر في مشيتها ، كما تبخر
جارية ترقص بين يدي سيدها . وثانياً ، هو لا يلجأ إلى التلاع
مخافة حلول الأضياف ، وهو واسع الرحب في قرى الضيوف كما
هو سريع النجدة في قتال الأعداء . وهو إلى ذلك في حياته جاد
هازل ، يدلى برأيه بين عظماء القوم ، عند ما يجد الجدد ، لأنه

شريف النسب ، على الحسب .

فإذا فرغ من الجحد ودعا داعي اللهو ، فهو في الحانات
بشرب ، وندماؤه أحرار كرام ، تتلأأ ألوانهم ، وتشرق
وجوههم ، وتغنيهم مغنية ، لابسة برداً ، أو ثوباً صبغ بالزعفران .
فالفتوة في نظره ونظر أمثاله شجاعة وكرم ، وإتلاف للمال
في الجحد والهزل ، وعدم الاعتداد بالحياة في سلم أو حرب .

وقد شرح هذه الحصال بعد في قوله :

ولولا ثلاثٌ هن من عيشة الفتى وحقك لم أحفل متى قام عودى
ومثل هذا قول الخنساء ترثي أخاها صخرأ :

أمطعمكم وحاميكم تركم لدى غرباء منهم رجاءها
ليبك عليك قومك للمعالى وللهيجاء إنك ما فتاها

« تقصد إنك فتاها ، و (ما) زائدة .

ومثل قول طرفة يدل على اعتقاده أن الحياة هي هذه الحياة
ولا شيء وراءها . فليتذ ما أمكن ، وليس هذا من الإسلام في
شيء . فكما صبغ الصوفية فيما بعد الفتوة - كما سيأتى - بصبغة
دينية صبغت كل طائفة في الجاهلية الفتوة ببishtهم ومزاجهم .

وكان الفتوة هي المثل الأعلى لكل فتي يرسمه حسب خيالاته
 وزهير لما كان عاقلاً فصيحاً رزيناً جعل أهم صفات الفتى
 الفصاحة في اللسان والحكمة في البحنان فقال :
 لسان الفتى نصف ونصف فؤاده

فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
 ومن ذلك نرى أن مسكيناً الدارمى رسم الفتى رسماً آخر ،
 فجعل من أهم ميزات الفتى حفظ السر إذ يقول :
 وفتيان صدق لست مطلع بعضهم
 على سر بعض غير أنى جماعها
 لكل امرئ شيعب من القلب فارغ
 وموضع نجوى لا يرام اطلاعها
 يظلون شتى في البلاد وسرهم
 إلى صخرة أعيا الرجال انصداعها

* * *

فهو قد أضاف الفتيان إلى الصدق كما يقال فتيان خير ،
 وفتيان سوء وكما يقال رجل سوء ورجل خير . يقول « رب فتيان

صدق استناموا إلى واستودعوني أسرارهم فكنت أنا حافظ سرهم
 قد أفردت كلا منهم بالوفاء وكتمان ما أودعني من سر فكنت أنا
 كالعقد الذي يجمع الحبات ، ولكل رجل منهم جانب من قلبي
 منفرد له لا يطلع عليه الشعب الآخر ، يودعوني سرهم كأنهم
 أودعوا سرهم صخرة أعيا الرجال صدعها . ومن غير شك هو
 أحد هؤلاء الفتيان ، ومزيتة الكبرى عليهم أنه يحتفظ بأسرارهم
 فهذه صفة جديدة في الفتوة وهي حفظ السر لم يتعرض لها غيره
 وربما كانت هناك صفات أخرى لم نطلع عليها تضاف إلى
 الفتوة ، ويمكننا أن نستخلص من ذلك أن الفتوة شباب وسلوك
 حميد .

ومن خير ما قيل في وصف الفتيان قول كعب بن زهير :
 لعمر ك ما خشيت على أبي مصارع بين قو فالسلي
 ولكني خشيت على أبي جريرة ربحه في كل حي
 من الفتيان محلول ممر وأمار بإرشاد وغى
 ألا لهف الأرامل واليتامى ولهف الباقيات على أبي

يقول ما خشيت على هذا الرجل أن يصرع بين هذين
الموضعين ، أى أن يموت حتف أنفه ، وإنما أخشى عليه
جرائره ، وطعنه فى الأحياء ، ومحل الشاهد فى أنه وصفه بأنه
فتى ، سهل الخلق وطىء الجانب ، يتناهى فى الحلاوة ، إن
استدعت الظروف ، ويتناهى فى المرارة إن استدعت
الظروف ، وأنه نافذ الإرادة ، يأمر أحياناً بالرشاد ، وأحياناً
بالغى ، وهذا الوصف بالصعلوك الخير أشبه .

غاية الأمر أن هذا السلوك يختلف باختلاف نظر الأشخاص
— فبعضهم يرى هذا السلوك فى العقل والحكمة ، وبعضهم يراه
فى التلذذ بالحياة ما أسعفته ، وبعضهم يراه فى حفظ السر ، وكل
إنسان فى الحياة يرى فى نفسه المثل الأعلى فى تصرفه . وهكذا
كان يرى أبو نواس فى تلذذه بالخمر والغلمان . وهكذا كان
يرى أبو العتاهية فى الزهد وترك اللذات ، وهكذا غيرهما .

ولذلك لا نستطيع أن ندعى أنه فى بادئ الأمر كان فى
الجاهلية جماعة يسمون الفتيان واحدهم فتى ، إنما كل ما فى
الأمر أن الكلمة تطلق على أفراد فى كل قبيلة جمعوا مع الشباب

صفة بينة من الصفات ، قد تكون الكرم والنجدة ، وقد تكون العقل والفصاحة . وقد تكون كتمان السر وقد تكون غير ذلك . وربما يجمعها أنها مجموعة صفات تحمدها قبيلة الفتى فيتغنى بها ، ولا ينحجل من ذكرها . وقد يكون هذا الشيء الذى يتغنى به الفتى فضيلة مثل حفظ السر والكرم وقد يكون غير فضيلة فى نظرنا كشرب الخمر والانغماس فى اللذات ، ولكن أقل ما تدلنا عليه أنها صفات محمودة من الشبان فى نظر قبيلتهم .

ويظهر أن المعنى الأول وهو الذى قصده طرفة كان أكثر شيوعاً ، وأن الذى قصده زهير أو مسكين الدارمى كان أقل ذبوعاً ، لغلبة اللهو فى الحياة الجاهلية العربية على حياة الجهد . كما يظهر أنه لم يكن هناك فى الجاهلية نظام يتبعه الشبان ، وإنما كان نواة نظام .

وقد التفت أبو الريحان البيرونى فى كتابه «الجواهر فى معرفة الجواهر» لفئة لطيفة ودقيقة فقال : إن هناك فرقاً بين الفتوة والمروءة .

فالمروءة تقتصر على الرجل فى نفسه وذويه وماله ، والفتوة

تتعداه إلى غيره ، والمرء لا يملك إلا نفسه . فإذا احتمل مغارم
الناس وتحمل المشاق في إراحتهم ، ولم يضمن بما أحل الله له ،
فهو الفتى الذى اشتهر بالقدرة عليها . ولذلك عرف الفتوة بأنها
بشر مقبول ، ونائل مبدول ، وعفاف معروف وأذى مكفوف .
فالبيرونى كالذى قبله لا يهتم بغنى أو فقر ، فى تعريف الفتى
ولمّا يجعل عنصره شيئاً واحداً وهو الإيثار ، وعلى هذا المعنى
يكون الفتى والصعلوك من النوع الجيد مترادفين .

وينحىل إلى أنه كان فى الجاهلية طبقتان مختلفتان . الفتيان
وهم أولاد الأغنياء من الشبان كامرى القيس وطرفة ، يقابلهم
أولاد الفقراء ويسمون الصعاليك .

فالصعلكة كما وردت فى كتب اللغة تساوى الفقر ؛
والصعاليك : شبان فقراء أمثال عروة بن الورد ، وتأبط شرا ،
والسليك بن السلكة ، والشنفرى ، ويسمون أيضاً ذؤبان العرب ،
جمع ذئب ، لأنهم يختطفون المال كما تختطفه الذئاب ، ويسمون
أيضاً العدائين لأنهم كانوا مشهورين بسرعة العدو فى السلب
والنهب . ولكن كانوا مع فقرهم نبلاء .

ومن نبلهم أنهم كانوا لا يهجمون إلا على الأشحاء البخلاء
من الأغنياء . فإذا وجدوا غنياً كريماً تركوه ، وإن وجدوا غنياً
شحيحاً هاجموه ، فهم لصوص شرفاء ونبلاء .

فكانوا بذلك خيراً من الأغنياء الأشحاء . ولذلك روى أن
معاوية بن أبي سفيان تمنى أن يصاهر عروة ، وعبد الملك بن
مروان تمنى أن يلده عروة وهما ما هما . وقد كان عروة هذا
صعلوكاً . ولذلك يسمى عروة الصعاليك . فالظاهر أن كلمة
الصعلوك لم تكن تدل على معنى سيئ ، كالذى كان فيما بعد .
وكم للكلمات من تنقل من عز إلى ذل ككلمة حرامى ، فقد
كانت فى الأصل تدل على النسبة إلى حرام ، وهى قبيلة تناهض
قبيلة سعد ، وكان الناس ينقسمون إلى قسمين ، سعدى
وحرامى ، فلما ذل أصحاب حرام ذلت الكلمة ، فأصبحت تطلق
على اللص . وكلفظ عتقى ، فإنها كانت فى الأصل تدل على
نسبة إلى قبيلة تسمى العتقاء ، ثم ذلت القبيلة ، فذلت الكلمة ،
وأصبحت تدل على مصلح النعال القديمة .

وشىء آخر نبيل كان يفعله هؤلاء الصعاليك ، وهو

تكوينهم جمعية من فقراء قومهم يصرفون منها ما كسبوه من الأغنياء الأشحاء عليهم بالتساوى ، حتى ليحكون أن رئيسهم عروة بن الورد أغار يوماً ، ونال خيراً كثيراً وسبى رجاله امرأة ، فأراد عروة أن يختص بها ، ويخصموا منه ثمنها ، فأبوا عليه ذلك تطبيقاً للاشتراكية المطلقة ، وقالوا نقومها بإيل فتكون سهماً فمن شاء أخذه ومن شاء تركه . ومن تعبيراته الحميلة قوله :
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة وأحسوقراح الماء والماء بارد
ومعنى تفريق جسمه فى جسوم كثيرة ، أنه يفرق غذاءه الذى يكون جسمه على أجسام كثيرة ليكونهم . ويصف نفسه بقوله :

ذرينى أطوف فى البلاد لعلى	أخليك أو أغنيك عن سوء محضر
فإن فاز سهم للمنية لم أكن	جزوعا وهل عن ذاك من متأخر
وإن فاز سهمى كفكم عن مقاعد	لكم خلف أديار البيوت ومنظر

* * *

ولعروة هذا ديوان مطبوع يدل على نبلة وفضله وأوصافه . فهو فقير يتحسس أخبار الأغنياء ، فمن وجدته كريماً سخياً خلاه ،

ومن وحده شحيحاً بخيلاً غزاه ، وفرق ما جمعه على زملائه بالعدالة لا يرضى بشيء لنفسه إلا برضاهم . فمثله مثل برناردشو في إحدى رواياته إذ هاجم قوم سيارة فخمة يركبها أغنياء مرابون . فقال لهم الهاجمون ، نحن سراق الأغنياء ، وأنتم سراق الفقراء ، وكما فعل تولستوى إذ كان غنياً واسع الغنى ، فوزع ثروته على فلاحيه وعاش فقيراً . غاية الأمر أن عروة هذا سبقهما في النبل بنحو ألفي سنة .

والخلاصة أننا نرى في الحياة الجاهلية البدوية نوعين متميزين من الشبان (أبناء الذوات) ، قد يجتمعون ويتخذون لهم محلاً مختاراً ، ويعيشون عيشة إباحية ، فيها خمر ، وفيها غناء ، وفيها نساء . وهم مع ذلك كرام ، يضيفون من نزل بهم ، ويغدقون عليهم من خيرهم . وتقابلهم طائفة أخرى من أبناء الفقراء يسمون الصعاليك ، يشاركونهم في الكرم والاشتراكية ، ويخالفونهم في أن حياتهم ليست حياة دعة واستمتاع . ولكن حياة غزو وسلب ونهب ، وتوزيع عادل على أمثالهم ، يضاف إلى ذلك فرق آخر وهو أن الفتيان يعطون ما يعطون وهم مترفعون ،

والصعاليك يعطون ما يعطون وهم يعتقدون أنهم مع زملائهم الفقراء
متساوون . وإن شئت فقل إن الفتيان يعطون ما يعطون عطفاً
وتفضلاً ، والصعاليك يعطون ما يعطون أداء لما يروونه واجباً .

وسنرى فيما بعد أن كل نواة من هاتين تطورت في الحياة
الإسلامية فأساس الصعلكة كان الكرم مع النجدة ، كما أن
أساس الفتوة الكرم أيضاً مع النجدة ، ولكن قد تنعدم النجدة
مع الصعلكة فيكون صاحبها صعلوكاً رديئاً ، كما قال عروة بن
الورد في التفرقة بين النوعين ، فقال في النوع الثاني :

لحى الله صعلوكاً إذا جن ليله	مصافى المشاش ألفاً كل مجزر ^(١)
يعد الغنى من دهره كل ليلة	أصاب قراها من صديق ميسر ^(٢)
ينام عشاء ، ثم يصبح طاوياً	يحت الحصاع عن جنبه المتعفر ^(٣)

(١) لحى ، لعن ، والمشاش ، رأس العظم اللين الحش ومصافى المشاش
مفضله وملازمه وعاقده عقد الألفة بينه وبينه ، والمعنى ، لعن الله صعلوكاً
حقير النفس إذا أظلم ليله تحسس سقطاً لطعام ، ولازم مكانه .

(٢) أى أن هذا الصعلوك إذا أصاب الضيافة من صديق غنى ، حسب
ذلك من نفسه غنى ، أى أنه يرضى من عيشه بقوى ليلة من صديق .

(٣) يحت العصا ، يفركه عن جسمه وهذا علامة خموله ودقائه همته
فهو كثير النوم لا يسعى لرزقه .

قليل التماس الزاد إلا لنفسه إذا هو أسمى كالعریش المجور (١)
 يعين نساء الحى ما يستعنه فيضحى طليحاً كالبعير المحسّر (٢)
 ووصف النوع الأول فى قوله :

ولله صعلوك صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور (٣)
 مطلاً على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيع المشهر (٤)
 فإن بعدوا لا يأمنون اقترابه تشوف أهل الغائب المنتظر (٥)
 فذلك إن يلق المنية يلقها حميداً وإن يستغن يوماً فأجدر (٦)

(١) أى إذا هو أسمى وشبع بطنه بما أعطاه الناس سقط على الأرض من التخمّة كالكوخ الذى يتداعى ويسقط ، والمجور ، الساقط .
 (٢) أى يقضى نهاره فى خدمة النساء فى الأعمال الوضيعة فيكون كالبعير الكليل .

(٣) القابس طالب النار ، والمتنور الذى يطلب النار من بعيد أى لله صعلوك فقير آخر مهلل الوجه منبسط النفس للعمل ، لا يخشع لفقره كأن ضوء وجهه ضوء ناز مستضىء بنورها .

(٤) مطلاً ، مشرفاً على أعدائه يغزوم فيزجرونه ويصيحون به كما يصيحون بقداح الميسر عند اللعب بها ليعبده .

(٥) أى أن بعد أعدائه عنه لم يمهله من أن يغزوم ولا يأمنون ذلك منه كما يفعل أهل الغائب الذى ترتقب عودته .

(٦) أى إن يمت يمت حميداً ، وإن بقى فاستغنى فأجدر بهذا الغنى لأنه ينفقه فى المحامد .

* * *

فهو بذلك قد ميز بين النوعين من الصعاليك . صعلوك فقير خامل كسول بليد ينتظر الصدقة من الناس ، وصعلوك آخر فقير ولكنه يسعى على رزقه ورزق غيره بالانتقام من أعدائه وسلبهم أموالهم ، ينفقها في إطعام الصعاليك مثله .

وفي هذا المعنى وتقسيم الصعلوك إلى قسمين قال حاتم الطائي :
 لحى الله صعلوكاً مناه وهمه من العيش أن يلقى لبوساً ومطعماً
 ينام الضحى حتى إذا الليل جنه تنبه مثلوج الفؤاد مورماً (١)
 مقبلاً مع المثرين ليس ببارح إذا نال جدوى من طعام ومجثماً (٢)
 وقال في الصنف الآخر :

ولكن صعلوكاً يساور همه ويمضى على الهيجاء ليثامصماً (٣)
 إذا مارأى يوماً مكارم أعرضت تيمم كبراهن ثمت صمماً (٤)
 فذلك إن يلق الكريمة يلقها حميداً ، وإن يستغن يوماً فربماً (٥)

-
- (١) مثلوج الفؤاد أى بارد القلب بليداً ومورماً متفخفاً من الغم .
 (٢) الجدوى العطية ، ومجثماً أى مكاناً يقيم فيه .
 (٣) يساور همه يواتيه ويدافعه .
 (٤) تيمم قصد وتعهد . (٥) فربماً أى فربما حمد يوماً أمره .

وكان من الصنف الثانى عروة بن الورد، ولذلك تمنى معاوية أن يصاهره وعبد الملك بن مروان أن يكون عروة أباه كما ذكرنا. وللصعاليك من النوع الثانى أقاصيص كثيرة بديعة ؛ من ذلك ما روى أن عروة بن الورد بلغه عن رجل من بنى كنانة بن خزيمة أنه أبخل الناس . وأكثرهم مالا ، فبعث عليه عيوناً فأتوه بخبره ، فشده على إبله فاستاقها ، ثم قسمها على أصحابه .

وكان عروة هذا إذا أصابت الناس سنة جديدة ، ترك هو وأصحابه المريض والكبير والضعيف فى دورهم ثم يأخذ الأقوياء من قومه معه ويخرج فيغير بهم ، ويجعل لأصحابه ولؤلؤاء المرضى والكبار والضعاف نصيبهم . حتى إذا أخصب الناس وذهبت السنة ، ألحق كل إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها . وربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى . ومثل هذه الأخبار والأشعار نراها فى أخبار تأبط شراً والسليك بن السليكة والشنفرى وأمثالهم من مشاهير الصعاليك .

* * *

نعود بعد ذلك للفتيان ، فلعلهم كانوا كذلك قسمين ،

كلهم أغنياء وكلهم شبان ولكن يختلفون في مقدار النجدة
والكرم .

يقول الشاعر :

وليس فتي الفتيان من راح واغتدى
لشرب صبوح أو لشرب غبوق
ولكن فتي الفتيان من راح واغتدى
لضر عدو أو لنفع صديق

* * *

فهو يرى أن الغنى وحده واللهو والشراب ، لا تكفي لجعل
الفتي فتي الفتيان ، وإنما الذي يجعله فتي الفتيان ، جده في
الحياة وأن يكون ضاراً لعدوه نافعاً لصديقه .

ويقول الآخر :

قد يدرك الشرف الفتي ورداؤه خلق وجيب قميصه مرقوع

* * *

فهذا لا يجعل الغنى والترف عنصريين من عناصر الفتوة ،
عكس ما هو مفهوم بل إن الفتي قد يكون فتي وهو فقير ،

رداؤه خلق ، وقميصه مرقوع ، وبذلك يلتقى الفتى مع الصعلوك بهذا المعنى .

وقد اشتهر كثير من العرب بالصعلكة وربما كان من أشهرهم عروة بن الورد ويسمى عروة الصعاليك ، والشنفرى وتأبط شرا ، وسليك بن السلكة ، وهؤلاء على ما يظهر هم الزعماء منهم أو من جمعوا بين الصعلكة والشاعرية التى أظهرتهم أما الصعاليك الآخرون فأكثرهم مغمورون أو جنود مجهولون .

وقد أنتجت الحالة الاجتماعية فى جزيرة العرب هذه الصعلكة لأن أكثرهم كان من الفقراء ولا يجدون ما يأكلون ، وإذا حصلوا على شىء من غارة أو نحوها فشيخ القبيلة هو الذى يأخذ من الغنيمة حصة الأسد ، وهم لا يأكلون إلا الفتات ، ثم نتاج الأرض قليل محدود لا يكفى كلهم ليعيشوا عيشة سعيدة ، وتكاد تكون حالتهم فى الغنى والفقر كحالتنا اليوم ، شعب فقير ورؤساء أغنياء ، فماذا يصنعون ؟

لا سبيل للتحرر من هذا إلا الإغارة على الأغنياء ، ولكن

بشرطين ينفعان في العلاج ، الأول : أن يتركوا الأغنياء المحسنين لأن إحسانهم في الواقع حقق غرضهم وأسدى إلى فقراءهم خيراً كثيراً . وإن المروءة تقضى بأن الأغنياء متى أدوا الواجب عليهم فلا يستحقون ظلماً ولا عدواناً . فكانوا يتجسسون على الأغنياء فمن علموا أنه كريم تركوه وشأنه بل وحافظوا على أمواله ومن عرفوا أنه شحيح بخيل وجدوا أنه قصر في واجبه فنفذوا هم بالتلصص واجبه .

والأمر الثاني : أنهم تجنبوا أن يقعوا في الخطأ الذي وقع فيه الأغنياء والأشحاء ، وفرضوا على أنفسهم ، أنهم يفرقون بالسوية بينهم ما جمعه حتى لا يكون رئيس ومرؤوس ولا غنى ولا فقير . يدل على ذلك القصة التي حكيناها عن عروة الصعاليك وأتباعه إذ أبوا عليه أن يختص بأى شيء . وبذلك يكونون مجتمعاً خاصاً داخل المجتمع الكبير عماده كما نقول اليوم : الاشتراكية — بل هي أسمى من الاشتراكية لأنهم كانوا يحصلون المال ممن لا يستحقه ثم ينفذون بالقوة هذه الاشتراكية .

وهم هم الرقباء على تنفيذها . وقد كثر عددهم بسبب أن

أفراداً خرجوا على قبيلتهم بارتكاب جريمة لا ترضها القبيلة فخلعوه . فلما خلعوا لم يجدوا أمامهم إلا الصعلكة يداون بها خلعهم وسما الخلعاء . فيحدثنا مثلاً صاحب الأغاني أن قيس ابن الحداية كان خليعاً صعلوكاً خلعتة قبيلة خزاعة لأنه اشترك مع جماعة من أسرته في قتل أحد أفراد قبيلة وعجز هو ورفقاؤه عن دفع الدية وفروا هارين ، ونزلوا على فراس بن غنم فأواهم - وتصعلك مع صعاليكها ، ومثله أبو الطمحان القيني وغيرهما . ويظهر أنهم لما خلعوا من قبيلتهم ولا حماية لأحد في هذه البيئة إلا بقبيلته اضطروا إلى اللجوء إلى قبيلة أخرى يحتمون بها ولم يجدوا خيراً من التصعلك إذ هو يتفق مع جنائتهم لأنه جناية أخرى . وجناية كريمة خير من جناية وضيعة .

ونعود إلى ذكر شيء من أخبار رؤساء هؤلاء الصعاليك لأنه يوضح لنا صورتهم . فعروة بن الورد مثلاً كان من مشاهير الصعاليك ومن شعرائهم .

يتغنى بالصعلكة وينهى امرأته عن التعرض لسيرته فهو إذا خرج للقتال لا يصح أن تعترضه وإذا حصل مالا وأراد أن يفرق

على الصعاليك أمثاله لا يصح أن تعترض عليه أيضاً .
وأكبر ميزة لعروة أنه كان رجلاً يشعر بالناس أكثر مما
يشعر بنفسه واخترع لذلك المعنى التعبير الفنى الجميل الذى
ذكرناه وهو :

(أقسم جسمى فى جسوم كثيرة)

ويقول : إنى امرؤ عافى إنائى شركة

وأنت امرؤ عافى إنائك واحد (١)

اتهزأ منى إن سميت وقد ترى

بجسمى مس الحق والحق جاهد (٢)

أقسم جسمى فى جسوم كثيرة

وأحسو قراح الماء والماء بارد (٣)

وقد جهد قومه جهداً شديداً ولاقوا عناء ، وأحاطوا أنفسهم

بسياج لما أعوزتهم المكاسب ، وقالوا « نموت فيها جوعاً خيراً من

(١) عافى إنائى شركة : أى طالب معروفى خلق كثير .

(٢) جاهد . متعب والحق الذى يعنيه صلة الرحم وحماية الضعفاء .

(٣) أقسم حطامى على الناس وأكتفى بالماء الخالص غير المزوج

بالبن فى الشتاء حيث الجسم أحوج إلى الغذاء .

أن تأكلنا الذئاب .

وكان عروة غائباً فأتاهم فترع عنهم سياجهم وقال لهم : « هذه قلوبى فقددوا لحمها واحملوا أسلحتكم عليها حتى أصيب لكم ما تعيشون به أو أموت » .

فخرج مع أتباعه فوجدوا فى الطريق آثاراً ، فقال لهم « هذه آثار من يرد الماء فاكمنوا . فجاءت الإبل بعد خمس ، فوردت منها مائة معها فصلانها ؛ ومعها فارس بسلاحه فخرج عليه عروة وضربه بسهم أرداه . واستاق الإبل حتى أتى قومه فأحياهم وفى ذلك يقول :

أليس ورائى أن أدب على العصا	فيأمن أعدائى ويسأمنى أهلى
أقيموا بنى لبنى صدور ركابكم	فإن منايا القوم شر من الهزل
لعل انطلاقى فى البلاد ورحلتى	وشدى حيازيم المطية بالرحل
سيدفعنى يوماً إلى رب هجمة (١)	يدافع عنها بالعكوف وبالبخل

* * *

(١) الهجمة المائة من الإبل ، وكان يصحبه صملوك آخر يسمى

أشيم بن شرحبيل .

وكان يصحبه صعلوك آخر يسمى أشيم بن شرحبيل ، وكان
يسمى مأوى الصعاليك لأنه كان يعولهم وينفق عليهم حتى يستغنوا .
وربما كان الصعلوك الثاني المشهور وهو الشنفرى . وإذا
كان عروة يصور لنا المعنى الإنسانى فى حركة الصعاليك كان
الشنفرى يصور لنا معنى الشجاعة والسلب والنهب ونحوها ، أى
أن عروة يمثل الغاية والشنفرى يمثل الوسيلة . وربما كانت لفظة
الشنفرى تدل على ذلك فإن من معانيها الغليظ الشفتين . وقد
فقد الشنفرى توازنه الاجتماعى مع قبيلته حتى صار لا يقام له
وزن . ويذكر فى شعره فقره وهزاله ونعليه الممزقتين وثيابه البالية
المهلهلة وحمله قربة الماء وتشرده فى الصحراء بين الوديان السخيفة
حيث تتجاوب الجحش . ف شعر عروة أكثره فى غيره والشنفرى
أكثر شعره فى نفسه .

من مثل قوله :

نخرجنا من الوادى الذى بين مشعل

وبين الجبا هيات أنشأت سربتى (١)

(١) السرب الجماعة .

أَمْشَى عَلَى أَيْنِ الْغَزَاةِ وَبَعْدَهَا
 يَقْرِبُنِي مِنْهَا رَوَاحِي وَغُلُوتِي (١)
 وَأُمُّ عِيَالٍ قَدْ شَهِدَتْ تَقْوَتَهُمْ
 إِذَا أَطْعَمْتَهُمْ أَوْ تَحْتَ وَأَقْلَتِ (٢)
 تَخَافُ عَلَيْنَا الْعِيْلَ إِنْ هِيَ أَكْثَرَتْ
 وَنَحْنُ جِيَاعٌ أَى آلٍ تَأَلَّتْ (٣)
 مَصْعَلَكَةٌ لَا يَقْصُرُ السِّرُّ دُونَهَا
 وَلَا تَرْتَجِي لِلْبَيْتِ إِنْ لَمْ تَبَيَّتْ (٤)
 ثُمَّ يَقُولُ :

شَفِينَا بَعْدَ اللَّهِ بَعْضُ غَلِيلِنَا
 وَعُوفٌ لَدَى الْمَعْدَى أَوْانٍ اسْتَهَلَتْ (٥)

-
- (١) أَيْنِ الْغَزَاةِ أَى مَا يَصِيْبُهُ مِنْ تَعْبِهَا .
 (٢) يَقُولُ إِذَا أَنْفَقَتْ عَلَيْهِمْ قَلَّتْ مَخَافَةٌ أَنْ تَطُولَ الْغَزَاةُ .
 (٣) الْعِيْلُ الْفَقْرُ . وَأَى آلَةٍ تَأَلَّتْ ، أَى مَا أَحْسَنَهَا سِيَاسَةً سَاسَتْهَا بِهَا .
 (٤) مَصْعَلَكَةٌ أَى صَاحِبَةُ صَعَالِيكَ وَهِيَ يَمْدَحُهَا بِذَلِكَ ، وَلَا تَرْتَجِي
 لِلْبَيْتِ أَى لَا تَرْتَجِي أَنْ تَكُونَ مَقِيْمَةً . إِلَّا أَنْ تُرِيدَ ذَلِكَ .
 (٥) يَقُولُ بَرَدْنَا بِغَضْنَا بِقَتْلِ عَبْدِ اللَّهِ وَقَتْلِ عُوفٍ ، وَالْمَعْدَى مَوْضِعُ
 الْقِتَالِ ، وَأَوْانٍ اسْتَهَلَتْ ، أَى أَوْانٍ أَنْ ارْتَفَعَتْ الْأَصْوَاتُ فِي الْحَرْبِ .

إذا ما أتني ميتي لم أبالها
ولم تذر خيالاتي الدموع وعمتي (١)
ولاني لخلو إن أريدت حلاوتي
ومر إذا نفسي العزوف استمرت (٢)
أي لما آبي ، سريع مباءتي
إلى كل نفس تتحى في مسرتي
من أجل هذا كان شعر عروة رقيقاً لطيفاً . وشعر الشنفرى
جافاً عنيفاً ومن خير ما ترك لنا لاميته المشهورة الخالدة التي
سموها لامية العرب ومطلعها .
أقيموا بني أمي صدور مطيكم فلاني إلى قوم سواكم لأميل
وقد غنى بها الأدباء وشرحوها عدة شروح . وعارضها
الطغرائي في لاميته الأخرى وسمّاها لامية العجم .

(١) يقول إذا أتني ميتي لم يبك على لكثرة جرائري .
(٢) يقول أنا سهل لمن سألني ، ومر عند الاختلاف على ،
والعزوف المنصرف عن الشيء ، واستمرت من المراجعة .

ويقول في وصف نفسه :

قليل غرار النوم أكبر همه

دم الثار أو يلتقى كنيا مسفعا

قليل ادخار الزاد إلا تعلقة

فقد نشز الشرسوف والتصق المعا

ومن يغمر بالأعداء لا بد أنه

سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا

ولاني وإن عمرت أعلم أنني

سألقى سنان الموت يبرق أصلعا

* * *

وللقتال الكلابي شعر كشعر الصعاليك فلعله منهم إذ يقول :

إذا هم هما لم ير الليل غمة عليه ولم تصعب عليه المراكب

جليد كريم خيله وطباعه على خير ماتني عليه الضرائب (١)

إذا جاع لم يفرح بأكلة ساعة ولم يبتس من فقد ها وهو ساغب

(١) الضرائب جمع ضريبة وهي الخليقة .

وفي مثل هذا المعنى بقول حاتم طي^(١) :

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى فكلتاها يستق بكاسيهما الدهر
فما زادنا بغياً على ذي قرابة غنانا، ولا أزرى بأحسابنا الفقر

* * *

وكان يميم بن وثيل اليربوعي يتصعلك ، وكان مخضرمًا ،
عاش طويلاً في الجاهلية والإسلام يقول :
إلى إذا ما القوم كانوا أنجيه (١)

واضطرب القوم اضطراب الأرضية (٢)

وشد فوق بعضهم بالأرويه
هناك أوصيني ولا توصي به

* * *

ومن شعراء الصعاليك أيضاً البراق . وله شعر كثير ، ورجز
كثير ؛ من شعره قوله :
لعمري لست أترك آل قوى وأرحل عن غنائى أو أسير

(١) أى تناجوا بالشر .

(٢) الأرضية هى الحبال التى يستق عليها من الآبار البعيدة القعر
وتسمى أيضاً بالأرويه .

بهم ذلي إذا ما كنت فيهم
 أنزل بينهم إن كان يسر
 وأترك معشري وهم أناس
 فكف الكف عن قومي وذريهم
 ويقول :

إذا لم أقد خيلاً إلى كل ضيغم
 فلا قدت من أقصى البلاد طلائعاً
 فآكل من لحم العداة وأشبع
 ولا عشت محموداً ، وعيشي موسع

ويقول :

لأفرجن اليوم كل الغمم
 صبرا إلى ما ينظرون مقدمي
 من سيهم في الليل بيض الحرم
 لأوجعن اليوم ذات المبسم
 إني أنا البراق فوق الأدهم
 بنت لكيز الوائلي الأرقم
 ويقول :

تولت رجالي بالغنائم والغنى
 ونادوا نداء بالرحيل فلم أطل
 مزجين للأجمال من رملان
 إياباً ، وصنوي في المعارك فاني

أترك من لا يترك الدهر طاعتي ملب لما أدعو بكل لسان

أخى ومعينى فى الخطوب وصاحبى

بكل . إغاراتى بحد سنانى

فلما دعانى يا ابن روحان لم أحم وقومت عسالى وصدر حصانى

طعنت بنصل الرمح جبهة مالك وغيبته فيه بغير توان

ومن الشعراء الصعاليك تابط شرا ، ومن شعره المشهور وفيه

ما يدل على نفسه .

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده أضاع وقاى أمره وهو مدبر

ولكن أخو الخزم الذى ليس نازلا به الخطب إلا وهو للقصد مبصر

أقول للحيان (١) وقد صفرت لهم وطانى ويومى ضيق الحجر معور

هما نخطنا إما أسار ومنّة وإما دم والقتل بالحرّ أجدر

* * *

وقال أيضاً قصيدته اللامية ومطلعها .

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمه ما يطل

ومنها يصف نفسه :

(١) لحيان فرع من هذيل .

شامس في القرحتى يدانى ذكت الشعرى فبرد وظل
 يابس الجنيين من غير بؤس وندى الكفين شهم مدل (١)
 ظاعن بالحزم حتى إذا ما حل حل الحزم حيث يحل
 غيث مزن غامر حيث يجدى وإذا يسطو فليث أبل (٢)
 مسبل في الحى أحوى رفل^٣ وإذا يغزو فسمع أزل (٣)
 وله طعمان أرى^٤ وشرى^٤ وكلا الطعمين قد ذاق كل (٤)
 يركب الهول وحيدا ولا يصحبه إلا اليماني الأقل

ولعل في هذه الأبيات وصف كل صعلوك كبير . . .
 وقد أعجب بها جوته الشاعر الألماني فترجمها إلى الألمانية .
 واختار له المفضل الضبي في كتابه المفضليات شعراً كثيراً

-
- (١) يابس الجنيين أى جائع أى أنه يؤثر بالزاد غيره على نفسه ومن عادتهم التمدح بالهزال وإيثار الغير والمذل هو الواثق بنفسه وبآلاته وبعده .
 (٢) الأبل ، المصمم الماضى على وجهه لا يبالي ما يلقى .
 (٣) الأزل الخفيف العجز ، ومسبل إزاره أى أنه في حالة الأمن والدعة مترف منعم ، يسبل إزاره ، والسمع الذئب .
 (٤) الأرى العسل .

بل افتتح مختاراته بشعر تأبط شرا هذا بقصيدته المشهورة .
يا عبيد مالك من شوق وإبراق ومر طيف على الأهوال طراق
يقول فيها :

لا شيء أسرع منى ليس إذا عذر وإذا جناح يجنب الرّيد خفاق (١)
ومنها :

ولا أقول إذا ما خلة صرمت

يا ويح نفسي من شوق وإشفاق (٢)
سباق غايات مجد في عشيرته

مرجع الصوت هدأ بين أرفاق (٣)
حمل ألوية شهاد أندية

قوال محكمة ، جواب آفاق

(١) يعنى بنى عذر طرفة ، والرّيد الشّراق الأعلى من الجبل ،
ولأنما خص جارج الجبل لأنه أسرع طيراناً من جارج السهل . وجارج
السهل أكثر ما يصيد الأرانب والحشرات أما جارج الجبل فيصيد الطير
وما خلق في الهواء .

(٢) يقول أنا مالك لنفسى مجرب أصل ما وصلنى وأقطع من قطعى .
(٣) يريد أن يسبق إلى المجد من سابقه ويريد بمرجع الصوت أنه
يصيح بأصحابه آمراً وناهياً ، والأرفاق الرفاق ، والهد الصوت الغليظ .

فذاك همى وغزوى أستغيث به

إذا استغثت بضافى الرأس نفاق (١)

ثم يقول :

عاذلتى إن بعض اللوم معنفة وهل متاع وإن إبقيته باق
إنى زعيم لئن لم تتركوا عدلى أن يسأل الحى عنى أهل آفاق ٢
سدّد خلالك من مال تجمعه حتى تلاقى الذى كل امرئ لاقى ٣
لتقرعن على السن من ندم إذا تذكرت يوماً بعض أخلاقى
وهذا آخر القصيدة الحميلة القوية الدالة على بعض أخلاق
الصعاليك النبلاء .

ومن عرف من الصعاليك أبو خراش الهذلى وهو يهمنى لأنه
كان صعلوكاً مخضرمًا ، عاش بعض حياته فى الجاهلية وبعضها

(١) ضافى الرأس ، أى رجل كثير الشعر وإنما استغاث بكثير
الشعر ، لكثرة اشتغاله بالغزو ، حتى لا يتعهد شعره .

والنفاق ذو الصوت يصبح فى أثر الحمل إذا سرى ، يقول هذا الذى
ذكرت على مثله أعول ، ومثله أطلب ، وأغزو لأصحابه ويصحبني .

(٢) يقول لئن لم تتركوا لوى لأفارقنكم ، حتى تسألوا عنى أهل
الآفاق فلا يخبركم عنى أحد .

(٣) يقول ، سد بمالك ثلم فقرك وفقر أصحابك حتى تلاقى الموت .

في الإسلام ، وليس بين الحياتين فرق كبير وقد امتاز أبو خراش بالرياء كما اشتهر به قومه الهذليون فرث أصحابه في الجاهلية وأصحابه في الإسلام بمعان مألوفة في الشعر الجاهلي مثل الكرم والشجاعة ، وعجز الإنسان أمام الموت . ومع ذلك يمكن تبين أثر الإسلام في شعره الإسلامي كأن يقول :

فليس كعهد الدار يأم مالك ولكن أطالت بالرقاب السلاسل
وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى العدل شيئاً ، فاستراح العوذل
فأصبح ! إخوان الصفاء كأنما أהל عليهم جانب الترب هائل

* * *

فالتحدث عن العدل من طبيعة الإسلام لا من طبيعة الجاهلية . وله قصيدة لطيفة يبكي فيها ابنه خراشاً . وكان خراش هذا جندياً في جيش المسلمين أيام عمر بن الخطاب فحز ذلك في نفس أبيه . وكانت قد تقدمت به السن ، فلما سمع عمر لهذه الأبيات نهى أن يخرج إلى الغزو من كان له أب شيخ كبير إلا بعد أن يأذن له . وفي ديوان الهذليين المطبوع قطع كثيرة من شعر أبي خراش تقدم لنا صوراً لطيفة من صعلكته .

وعلى الجملة فإن شعر الصعاليك كثير ، بعضه فى أشخاصهم وبؤسهم وبعضه فى إنسايتهم . وربما كان بنوعيه بصور لنا جانباً كبيراً من جوانب الحياة العربية وربما كان من الظواهر الغريبة أن أكثر شعرهم مقطوعات لا قصائد ، وهو ظل ينسجم مع طريقة خطفهم ، فهم يخطفون فى حروبهم ويخطفون فى شعرهم .

فإن رأينا قصيدة طويلة كلامية الشنفرى ، فذلك استثناء ، وربما أنشأها فى حالة استقرار تستدعى الطول .

ولهم فى شعرهم خواص أخرى ، من ذلك وحدة الموضوع — فشعرهم فى التصعلك من جميع نواحيه . كما كان شعراء الفروسية فى الإسلام والنصرانية . وقد أبلجأتهم حياة السلب والنهب والتوزيع إلى أن يكون شعرهم واقعياً لأنهم يشعرون فيما يفعلون لا فيما يتخيلون . وقد نلاحظ أنهم يتجافون عن الحب وقل أن نجد فى شعرهم ، إنما نجد فى شعرهم مخاطبة زوجاتهم بعدم العتب عليهم فى سيرتهم وربما كان سبب ذلك أن الحب يبنى على أساسين . حياة مترفة بعض الترف ليست كحياة الصعلكة من بؤس

وفقر ، لأن الحب كالزهرة على المائدة لا ينتفع بها إلا بعد القوت ،
والثاني أن الحب يحتاج في أول تكوينه إلى استقرار والصعاليك
أبعد الناس عن الاستقرار .

كما نلاحظ في شعرهم التدفق والسرعة إذ كانوا مشهورين
باسم العدائين فكأنهم يعدون بأرجلهم ويعدون في شعرهم .
وعلى الحملة فقد كانوا في شعرهم خير مثال لتصوير
حياتهم في بساطة وإخلاص . ولعل هذا ما يفسر أن شعر كثير
منهم كان رجزاً ، والرجز أسرع من البحور الأخرى . فيروون
أن قيس بن الحداية كان يقاتل أعداءه وهو يرتجز ، والشنفرى
لما قطع أعداؤه يده رثاها بالرجز ، ويروون أن لعمر و ذى
الكلب الصعلوك أرجوزة طريفة يقص فيها قصة طريفة ، قصة
ذئب فاتك أغار على غنم . ولعل الذئب في هذه الأرجوزة رمز
للصعاليك تستلب حقوق الفقراء والغنم رمز للأغنياء البخلاء
تفترسهم الصعاليك . وهو يختم أرجوزته بأنه رمى الذئب بسهم من
سهامه أرداه صريعاً . ولئن كان كثير من الشعراء في الجاهلية
بدأوا شعرهم بالغزل أو بالبكاء على الأطلال ثم تخلصوا منه إلى

المديح فهؤلاء تحرروا من ذلك كله ، أما تحررهم من الغزل
وبكاء الأطلال فقد أبنا سببه من قبل ، وأما تحررهم من المديح
فلأنهم لم يعتادوا أن يستجدوا عن طريق المديح ، وإنما اعتادوا
أن يتكسبوا بطريق القوة .

فإذا نحن خطونا خطوة في التاريخ ، وقاربنا الإسلام ،
وجدنا نوعاً من الفتوة أو الصعلكة الشريفة في التاريخ ، وذلك
ما عرف في التاريخ وفي كتاب السيرة « بحلف الفضول » .
فقد جاء في الروض الأنف للسيهلي أنه « حلف عقده قريش
بينها على نصره كل مظلوم بمكة » وقد قال ابن قتيبة إنه قد سبق
قريشاً إلى مثل هذا الحلف جرهم في الزمن الأول فتحالف منهم
ثلاثة ، أحدهم الفضل بن فضالة ، والثاني الفضل بن وداعة ،
والثالث فضيل بن الحارث .

ومن أجل تسميتهم كلهم بالفضل والفضيل ، سمي حلف
الفضول ، وسمى الحلف الثاني بهذا الاسم أيضاً . وكان سببه أن
رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاصي بن وائل ،

وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عنه حقه ، فاستعدي عليه
الزبيدي عبد الدار ومخزوماً وغيرهما ، فأبوا أن يعينوه وزجروه فلما
رأى الزبيدي الشر أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس ،
وقريش في أنديتهم حول الكعبة ، فصاح بأعلى صوته :
يا آل فهر لمظلوم بضاعته . يبطن مكة نائى الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال ، وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

* * *

فقام الزبير بن عبد المطلب ، وقال : ما لهذا مترك .
فاجتمعت هاشم ، وزهرة ، وثيم بن مرة في دار عبد الله بن
جدعان ، فصنع لهم طعاماً وتحالفوا في ذى القعدة في شهر حرام
قياماً فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على
الظالم ، حتى يؤدي إليه حقه . ما بل بحر صوفة ، وما رسا حراء
وثبير مكانهما ، وعلى التأسي في المعاش . وسمت قريش ذلك
حلف الفضول ، ثم مشوا إلى العاصي بن وائل فانتزعوا منه سلعة
الزبيدي فدفعوها إليه . وقال الزبير بن عبد المطلب :

إن الفضول تحالفوا وتعاهدوا أن لا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاهدوا وتواثقوا فالحار والمعر فيهم سالم

وذكروا أن رجلاً من نخشم قدم مكة معتمراً ومعه بنت له
يقال لها (القتل) من أوضاً نساء العالمين ، فاغتصبها منه نبيه
ابن الحجاج ، وغيبها عنده ، فقال الخشمي من يعدني من هذا
الرجل ، ف قيل له عليك بحلف الفضول ، فوقف عند الكعبة
ونادى ، فإذا هم يسرعون إليه من كل جانب ، وقد انتضوا
أسيافهم يقولون جاءك الغوث فما بالك ، فقال : إن نبيها
ظلمني في ابنتي وانتزعها مني قسوة ، فساروا معه حتى وقفوا على
باب الدار ، فخرج إليهم ، فقالوا له ، أخرج الحارية ويحك ،
فقد علمت من نحن وما تعاهدنا عليه . فقال ، أفعل ، ولكن
متعوني بها الليلة ، فقالوا : لا ، لا والله فأخرجها إليهم .

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي
به حمر النعم ، ولو دعيت إليه في الإسلام لأجبت » .

والدليل على اتصال هذا الحلف ما ذكر السهيلي من أن عبد الله بن جدعان هذا وهو الذي عقد الحلف في بيته كان من الصعاليك .

وكان معروفاً بإطعام الطعام وتفريق الأكل على الناس ، فعل خيار الصعاليك .

ثم إنهم في تحالفهم حلف الفضول ، ذكروا حين تحالفهم كما قال السهيلي التأسى في المعاش ، أى المساواة في العيش ، فمن كان عنده ، أطعم من ليس عنده ، وهذا فعل كرام الصعاليك وهو مبدأ اشتراكى سليم .

فأعتقد أنه لولا نظام الفتوة ونظام الصعاليك ما كان حلف الفضول ، وهو مبدأ في غاية السمو ، إذ يقضى بتحقيق العدالة ، والأخذ من الظالم للمظلوم ، مهما كان الظالم قوياً عزيز الجانب . كما فعلوا مع العاصي ومع نبيه .

وهذا المعنى هو الذى أدركه أولوا الأمر في الدولة العباسية إذ رأوا أن القضاة قد يعز عليهم أن يأخذوا الحق من الظالم إذا كان ملكاً أو قريباً له أو ذا جاه ، فانشأوا لذلك ديواناً يسمى

ديوان المظالم يرأسه الخليفة أو من ينوب منابه لأخذ الحق من
ذى الجاه .

فلما جاء الإسلام وجدنا القرآن يستعمل « فتى » وصفاً
لإبراهيم عليه السلام فيقول (قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له
إبراهيم) ورأيناه يستعمله وصفاً لأهل الكهف فيقول (إنهم فتية
آمنوا بربهم ، وإذ أوى فى الفتية إلى الكهف) وقد فسر فى
الموضعين بالشباب ، وجاء الإسلام أيضاً باستعمال خاص
لكلمة (فتى) . ذلك أن الإسلام لم يرض أن يسمى الرقيق
المملوك عبد فلان وأمة فلان ، وكره العبودية تضاف لغير الله .
فاختار لها اسماً محبوباً وهو الفتى والفتاة ، وجاء فى الحديث
(لا تقولن أحدكم عبدى وأمنى ولكن ليقل فتاى وفتاى) وعلى
هذا المعنى جاء قوله تعالى (وإذ قال موسى لفتاه) . وجاء
« ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء » وشاع استعمال الكلمة فى الرقيق
حتى سئل أبو يوسف عن قال ، أنا فتى فلان ، قال هو إقرار
منه بالرق . فكان الإسلام اختار خير الألفاظ الدالة على الحرية

فدل بها على الرق طلباً لحسن معاملة الرقيق .

ولكن ظلت الكلمة تستعمل في معناها الأول وهو الشجاعة والفروسية فقالوا : « لا سيف إلا ذو الفقار ، ولا فتى إلا علي » إذ كان علي كما هو معروف فارساً شجاعاً . ولما مات محمد بن المهلب وهو بن سبع وعشرين سنة وكان شهيداً نبيلاً صلى عليه عمر بن عبد العزيز ثم قال (اليوم مات فتى العرب) وقال يزيد ابن المفرغ :

فالهول يركبه الفتى حذر السامة والمخازي
والعبد يقرع بالعصا والحر تكفيه العلامة

غير أنا نجد في العهد الأموي أمراً يستوقف النظر ، فقد ذكر الأغاني في ترجمة حنين الحيري كلمات في الفتوة تستحق النظر . وكان حنين هذا مغنياً نصرانياً من الحيرة ، وكان في أيام هشام بن عبد الملك ومن شعره الذي كان يغنى به .

أنا حنين ومنزلى النجف وما نديمى إلا الفتى القصيف
أقرع بالكأس ثغر باطية مترعة ناربية وأغترف

من قهوة باكر التّجار بها بيت يهود قرارها الخرف
والعيش غص ومتزلى نخصب لم تغدنى شقوة ولا عنف

وقال صاحب الأغاني (كان حنين غلاماً يحمل الفاكهة
بالحيرة وكان لطيفاً في عمل التحيات (١) فكان إذا حمل
الرياحين إلى بيوت الفتيان ومياسير أهل الكوفة وأصحاب القيان
ورأوا رشاقته وحسن قده وحلاوته وخفة روحه استحلوه وأقام عندهم
ونحف لهم فكان يسمع الغناء ويشتهي ويصغى إليه ويستمعه
ويطيل الإصغاء إليه) .

وقال في موضع آخر عن حنين (خرجت إلى حمص التمس
الكسب بها وأرتاد من أستفيد منه شيئاً فسألت عن الفتيان وأين
يجتمعون فقبل لي (عليك بالحمامات) فجئت إلى أحدها
فدخلته فإذا فيه جماعة منهم ، فأنست وانبسطت وأخبرتهم أنني
غريب ، ثم خرجوا وخرجت معهم فذهبوا إلى منزل أحدهم فلما
قعدنا أوتينا بالطعام فأكلنا وأوتينا بالشراب فشربنا فقلت لهم هل

(١) . التحية ، ما يقدم عند التحية من باقات الرياحين ونحوها .

لكنكم في مغن يغنيكم ، قالوا ومن لنا بذلك)
ويحدثونا أيضاً أن إبراهيم الموصلي نزل ضيفاً على الفتيان في
حصن فجعل يغنيهم فعرفه المهدي من هناك ، فلما تولى الخلافة
استدعاه .

هذه القصص الثلاث تدل على أمور . الأول أن هناك فئة
تسمى الفتيان كانوا في الحيرة وكانوا في حصن ، وربما كانوا
أيضاً في غيرها ، ولكن لم نعث على النصوص الدالة على ذلك .
الثاني أن هؤلاء الفتيان ليسوا كل الشباب ، وإنما هم شباب
من نوع خاص يظهر من عبارته أنهم من المياسير ، ومن لهم
حظ في السماع والشراب

ثالثاً أنهم كانوا يضيفون ويطلبهم الغرباء ليتزلوا عليهم
ضيفاً .

رابعاً أنه كانت لهم مجتمعات خاصة يعرفون فيها بالبللة .
يضاف إلى ذلك أن أنواعاً من الفروسية عني بها الفتيان في
العهد الأموي كالصيد وتربية الحيوانات المعلمة ، يطلقونها على
الصيد فقد روى الفخري أن يزيد بن معاوية « وكان قتي شاباً »

كان أشاء الناس كلفاً بالصيد ، وكان لا يزال لاهياً به وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب والحلال المنسوجة منها - ويهب لكل كلب عبداً يخدمه .

كما أخذوا عن الفرس اللعب بالبندق وهو كرات صغيرة من طين أو حجر أو رصاص يرمى بها عن قوس لصيد الطير أو نحوه ثم حشيت بالبارود فيما بعد . ومن هذا سميت البندقية . وليس بعيد أن تتصل ألعاب الفروسية هذه بالفتوة خصوصاً وإن الفخرى يعبر عن يزيد بن معاوية بأنه فتي .

ولكن لا تزال النصوص التي بين يدينا تحتاج إلى اكتشاف هذه الرابطة . وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى العصر العباسي وجدنا كلمة الفتوة استعملت في أربعة معان .

١ - كانت تستعمل للدلالة على المروءة من نبيل وكرم وشم وعدم تكلف . من ذلك ما جاء في كتاب أدب النديم لكشاجم أن رجلاً من أصحاب محمد بن عبد الله بن طاهر دعاه للطعام عنده دعوة احتفل لها . فلما حضر محمد طالبه بالطعام فظله ليتكامل ويتلاحق ما أحبه من الكثرة حتى تصرم

أكثر النهار ومس محمداً الجوع ، فتنغص عليه يومه وأراد محمد السفر فشيعه هذا الرجل حتى إذا دنا منه ليودعه ، قال له (أيامر الأمير بشيء؟ قال نعم . تجعل طريقك في عودتك على محمد بن الحارث فاسأله أن يعلمك الفتوة) .

فمضى حتى دخل إلى محمد ، فقال له (بعثني إليك الأمير لتعلمني الفتوة) وضحك وقال (يا غلام هات ما خضر ، فأني بطبق كبير عليه ثلاثة أرغفة من أنظف الخبز وأنقاها ، وسكرجات ، خل وملح من أجود ما يتخذ من هذه الأصناف ، وابتدأ يأكل فجاءته فصيلة باردة من مطبخه وتداركها الطباخ وأحدث له بعض فنجان جام حلو ، فانتظم له أكل خفيف ظريف في زمان يسير ، وبغير احتشام وانتظار) .

فهو يستعمل الفتوة في الكرم في سماحة من غير تكلف ومن هذا القبيل ما قاله أبو البلهاء في يزيد بن يزيد الشيباني يرثيه .

نعم الفتى فجعت به إخوانه	يوم البقيع حوادث الأيام
سهل الفناء إذا حللت بابه	طلق اليدين مؤدب الخدام

وإذا رأيت صديقه وشقيقه لم تدر أيهما ذوى الأرحام

* * *

٢ - نرى الصوفية استحسنت كلمة الفتوة وما تدل عليه من

معاني النبل والسماحة وأدخلتها في معجم كلماتها وغذتها من فضائلها . وأول ما نجد ذلك في الرسالة القشيرية فقد عقد القشيري باباً سماه باب الفتوة بجانب باب الحياء والصدق ، وقال في تعريفها « أصل الفتوة أن يكون العبد ساعياً أبداً في أمر غيره » ونقل عن الفضيل أنه قال « الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان » وقال بعضهم « الفتوة ألا ترى لنفسك فضلاً على غيرك »

وجروا على عادتهم في الأدب الرمزي ، فقالوا « إن إبراهيم سمي في القرآن فتى لأنه كسر الصنم وصنم كل إنسان نفسه » فالفتى في الحقيقة من خالف هواه ونفسه وهكذا أحيا الصوفية كلمة فتوة . ونقلوا عن كبارهم كلمات فيها ، فالحارث المحاسبي يقول « الفتوة أن تنصف ولا تنصف » وغيره يقول « الفتوة إظهار النعمة وأسرار المنة » وسئل أحمد بن حنبل « ما الفتوة ؟ قال : ترك ما ترجو لما تخشى » ولهم في ذلك الحكايات الطريفة في الفتوة كعادتهم .

من ذلك أن صوفيا تزوج امرأة ثم ظهر عليها البلحدرى قبل الدخول بها ، فتعاضى الصوفى حتى لا يجرح شعورها فلما ماتت فتح عينيه فقبل له فى ذلك فقال : « لم أعم ولكن تعاميت حذراً من أن تحزن » فقبل له : (سبقت الفتیان) .

ومن ذلك ما حكوه إن إنساناً يدعى الفتوة خرج من نيسابور إلى بلدة بخراسان فدنا منه رجل ومعه جماعة من الفتیان فلما فرغوا من أكل الطعام خرجت جارية تصب الماء على أيديهم فأبى الفتى النيسابورى وقال (ليس من الفتوة أن تصب النساء الماء على أيدي الرجال) .

وحكوا أن جماعة من الفتیان زاروا فتى فدعا غلامه ليقدم الأكل لهم فأبطأ الغلام فسأله الرجل لم أبطأت فقال الغلام (كان عليها نمل فلم يكن من الأدب تقديم السفرة إلى الفتیان مع النمل ولم يكن من الفتوة طرد النمل عن السفرة ، فلبثت حتى دب النمل) فقال له صاحب البيت (قد دقت يا غلام فى الفتوة) وتجادل الصوفية بعد ذلك جدالاً ظريفاً فى تفسير كلمة الشيخ ، هل عاب الغلام أو مدحه . وهل هذا العمل من الفتوة أو لا .

وهل الخوف من إيذاء النمل بالطرد يجب أن يراعى ، أو لا يراعى
الخوف عند إيذاء الضيوف بالانتظار وهكذا .

وعقد الشيخ محيي الدين بن العربي فصلاً طويلاً في الفتوة ،
في كتابه (الفتوحات المكية) عنوانه معرفة مقام الفتوة وأسراره ،
قدمه كعادته بأبيات من الشعر فيها .

مقدماً عند رب الناس والناس	إن الفتوة ما ينفك صاحبها
فحيث كان ، فمحمول على الرأس	إن الفتى من له الإيثار تحلية
لكونه ثابتاً كالرأس في الرأس	ما إن تزلزله الأهوا بقوتها
عن المكارم حال الحرب والباس	لا حزن يحكمه ، لا خوف يشغله
بلا معين ، فذاك الائن القاسى	انظر إل كسره الأصنام منفرداً

وقد بناه على قصة إبراهيم وأنه جاد بنفسه للنار ، إيثاراً
للحق . وعلى الحملة فقد أدخلها الصوفية في مذهبهم ، وصبغوها
بصبغتهم ، وجعلوها مقاماً من مقاماتهم ، وملئت بها كتبهم ،
ونقلوها من المعنى الدنيوى إلى المعنى الدينى كالزهد والإيثار
وضبط النفس ، وحملها على الحق مهما استتبع ذلك من المكاره .

٣ - وجدنا الناس يستعملون الكلمة في نوع من الناس هم الشبان الأشداء الذين يتباهون بقوتهم ، ثم يهددون الناس في أموالهم وفي أنفسهم ومن هذا القبيل ما جاء في الرسالة القشيرية ، من أن شقيق بن إبراهيم البلخي كان يتغنى ويعاشر الفتيان ، وكان علي بن عيسى بن ماهان ، أمير بلخ ، وكان يحب كلاب الصيد ، فقد كلباً من كلابه . فسعى برجل أنه عنده فطلب الرجل فهرب ، فدخل دار شقيق مستجيراً ، ففضى شقيق إلى الأمير ، وقال : خل سبيله ، فإن الكلب عندي أردته إليكم إلى ثلاثة أيام . فلما كان اليوم الثالث كان رجل من أصدقائه غائباً من بلخ رجع إليها ، فوجد في الطريق كلباً عليه كلاب فقال أهديه إلى شقيق فإنه يشتغل بالتفتي ، فنظر شقيق إليه فإذا هو كلب الأمير ، فسر به وحمله إليه ، وتخلص من الضمان ، فرزق الله الرجل الانتباه ، وتاب مما كان فيه ، وسلك طريق الزهد .

ومن ذلك ما جاء من أن أحمد بن خضرويه قال لامرأته : أريد أن أتخذ دعوة أدعو فيها عياراً شاطراً كان في بلدكم رأس

الفتيان . والعيارون الشطار هم فئة ينطبق عليهم ما ذكرنا من
اعتزازهم بالقوة ، واستخدامها في التهديد والسلب والنهب .

ثم كان هناك نوع رابع تستعمل فيه الكلمة ، هو نوع من
الفروسية المنظمة ، فقد اشتهرت ألعاب الفروسية في العصر
العباسي ونظمت ، وكثر اللاعب بالبندق والخروج به لرمى الصيد .
فقد ذكر الأغاني في سبب موت الشاعر أبي العبر أنه خرج إلى
الكوفة ليرمي بالبندق مع الرماة من أهلها ، فسمعه بعضهم يقول
قولا سيئاً في عليّ فقتله . كما عنوا بلعب الكرة والصوبلحان
وبالصيد والقنص وقال الفخري إن المعتصم كان ألحج الناس
بالصيد ، وبنى في أرض دجيل حائطاً طوله فراسخ كثيرة .
وكان إذا ضرب حلقة يضايقونها ، ولا يزالون يحدون الصيد حتى
يدخلوه وراء ذلك الحائط ، فيصير بين الحائط وبين دجلة ،
فلا يكون للصيد مجال . فإذا انحصر في ذلك الموضع دخل
هو وأقاربه ونحواص حاشيته وتأنقوا في القتل ، وتفرجوا ، فقتلوا
ما قتلوا ، وأطلقوا الباقي . وكانوا يعدون هذه الأنواع من صيد
ورمى ونحوهما من قبيل الفتوة .

بل ربما كانت تنعقد أواصر الفتوة بين جماعة لمناسبة من
 المناسبات كغربة أو نحو ذلك ، فتشتد بينهم الصداقة ،
 ويتعاونون على السراء والضراء ، وإن لم تجمعهم جماعة من قبل ،
 كالذى حكى أن رجلين من بنى أسد خرجا إلى أصبهان فآخيا
 دهقاناً بها ، وتعاقدا جميعاً على أن يكونوا فتية صدق يضمن
 أحدهم للآخرين ما يحتاجون إليه . فمات أحد بنى أسد في
 موضع يقال له راوند ، فظل هو والدهقان ينادمان قبره .
 يشربان كأسين ويصبان على قبره كأساً ثم مات الدهقان فكان
 الأسدى ينادم قبريهما ، فيشرب قدحاً ويصب على قبريهما
 قدحين . ويتغنى بهذه الأبيات :

خليلي هبا طالما قد رقدتما	أجد كما لا تقضيان كرا كما؟
ألم تعلما مالى براوند كلها	ولا بخزاق من حبيب سوا كما
أصب على قبريكما من مدامنى	فإلا تنالاها ترو ثرا كما
أقيم على قبريكما لست بارحا	طوال الليالى أو يجيب صدا كما
وأبكيكما حتى المات وما الذى	يرد على ذى عولة إن بكما كما
جرى النوم بين اللحم والجلد عنكما	كأنكما ساقى عقار سقا كما

* * *

قالفتوة هنا فتة مصطنعة ، نشأت عن غاية اشترك فيها
 الإخوان ، فهؤلاء فتیان من بنى أسد ، ورجل فارسى دهقان
 ألفت بين قلوبهم الغاية فتعاقدوا على أن ينى كل منهم لأخويه ،
 وأخيراً مات اثنان فوفى الثالث وبكاهما بكاء مرأ . وربما كان
 المثل الأعلى لهذا النوع الأخوة فى الإسلام فقد آخى رسول الله
 بين المهاجرين والأنصار ، وكان هذا الإخاء له غاية ، وهى
 أن يؤوى الأنصار المهاجرين لأن المهاجرين خرجوا من ديارهم
 وأموالهم واحتاجوا إلى المعونة بالأنصار ، وقد لاحظ رسول الله فى
 هذه الأخوة تقارب عقلية المتأخين وأمزجتهما ونفسيتهما ، فهذه
 أخوة لغاية شريفة ، يتعاقد فيها الإخوان على وفاء . وشدد رسول
 الله فى الرباط بينهما حتى كاد أن يورث بعضهما من بعض
 كأنهما أخوان حقيقيان ، فهذا نوع من الأخوة أرقى من إخوة
 بنى أسد والدهقانى ، وأعز منها غاية .

وليست الأخوة بهذا المعنى إلا نوعاً من أنواع الفتوة كما

سنرى بعد .

* * *

على كل حال في العصر العباسي وبعده تمت الفتوة بمعانيها المختلفة وأهمها نوعان (١) فتوة يصح أن نسميها فتوة مدنية أو دنيوية (٢) وفتوة دينية أو صوفية . ويظهر أن النوعين كانا متميزين في نظمهما وتقاليدهما ، وهذا ما سنحاول أن نوضحه .

فالفتوة المدنية على ما يظهر وليدة الفروسية والشجاعة . ومن قديم عرفت العرب بهما ، وقالوا في ذلك الأشعار الكثيرة من أمثال معلقة عمرو بن كلثوم وعنترة بن شداد . وخلفوا لنا أدباً وافراً في كل ما ينطبق على الفروسية والشجاعة . وعنى المؤلفون بعد في جمعها وتصنيفها ككتاب حلية الفرسان وشعار الشجعان لابن هذيل الأندلسي ، وقد ذكر فيه الخيل والمسابقة بها والسيوف والرماح والقسى والنبل والدروع والترس وما إلى ذلك وما قيل فيها من أشعار .

ولما جاءت الدولة العباسية تسلط العنصر الفارسي أولاً والتركى ثانياً وكان لهم نظم في الفروسية غير النظم العربية البسيطة البدوية ، فتسربت منهم إلى المسلمين . ورأينا المؤرخين يذكرون أن الرشيد أول خليفة لعب بالصوبلجان ورمى بالنشاب في

البرجاس ، والكرة والصوبلخان من ألعاب الفرس ، ويقوون في المعتصم إنه غلب عليه حب الفروسية ، والتشبه بملوك الأعاجم . وأنه قسم أصحابه للعب الكرة . ومعلوم أن المعتصم أول من استعان بالأتراك في أعماله ، وقربهم إليه وجعلهم جنداً . واشتهر في عصره بالتفنن في الصيد والقنص . وعدوه من أعلام الفروسية . واقتبسوا في ذلك من الفرس والأتراك . فعلموا الجوارح من الطير والكواسر من الفهود والكلاب . ووضعوا الكتب في جودتها وصفاتها ، وطرق تعليمها وأمراضها وما يصلح كل واحد منها . وسموا العلم الذي يبحث في ذلك « بالبيزرة » وقال في ذلك الشعراء .

وأصححنا نرى في كثير من دواوين الشعر باباً يسمى بالطرد وهو الصيد . ورويت القصص الكثيرة في أحاديث الفروسية . وقارن الكتاب بين فروسية العرب وفروسية الفرس والترك وغيرهم مما ليس هنا مجاله ، ووضعوا القواعد لتعليم الفروسية وقالوا مثلاً « إنه يجب أن يبتدىء الصائد بالخفة في الوثوب والتزول ، ثم يتدرب على ركوب الفرس العربي العريان بلا عدة سوى الرسن . قال المتنبي في وصف أمثالهم .

فكأنما خلقت قياماً تحنهم وكأنهم ولدوا على صهواتها

* * *

ثم يتعود الصائد ركوبها على اختلاف أنواع سيرها ثم الصيد عليها وهكذا . وكذلك وضعوا التعاليم للقسي والنشاب والتروس وما إليها .

وكانت الوقائع بين المسلمين والروم في الثغور منشأ لظهور ضروب من الفروسية تستدعى الإعجاب كما كانت الحروب الصليبية مصدراً كبيراً لذلك ، ففي كتاب الاعتبار ، لأسامة بن منقذ ، والروضتين لأبي شامة ، وسيرة صلاح الدين لابن شداد ، أمثلة كثيرة من الفروسية .

كما اشتهر في هذه العصور الإسماعيلية « جاء في كتاب آثار الأول » بعد أن ذكر قصة من فروسية بهرام ومثل هذا في المعنى رجال ببلاد الإسماعيلية ويسمون برجال الدعوة معدون لمثل هذا . فإن الرجل منهم أو الرجلين يغنى عن حركات الجيوش الكثيرة ويقال لهم في بلاد الإسماعيلية وفي بلاد الإفرنج (الحشيشية) وعند أهل الأقاليم « القداوية » وهم قوم على دين

الإسلام . وقد كان للملوك الإسلامية عناية بهم كبيرة .
 وفي زمننا هذا عني بهم الملك الظاهر وسيرهم للأشغال
 الكبار ، فقضوها مع الفرنج ، وفي قلاع الإسماعيلية في زمننا
 هذا الف بهرام .

ويظهر أن هذه الفتوة المدنية ، قد انقسمت إلى قسمين ،
 فتوة عسكرية وفتوة كرمية ، أو كما يسميها بعضهم فتوة جودية «
 فأما الفتوة العسكرية فيظهر أنها ترعرعت في العصر العباسي
 الأخير لسببين :

١ - الحروب الصليبية وحاجتها إلى فرسان أبطال ،
 يجدون في الحرب ضد الصليبيين وقد أخرجت هذه الحروب
 عدداً كبيراً أمثال نور الدين محمود بن زنكي وصالح الدين
 وأسامة بن منقذ . وغيرهم .

٢ - وجود بقايا الفاطسيين من الفدائيين الملقبين بالإسماعيلية
 الذين كانوا يمدون أبطالهم على قتل أعدائهم . أمثال الحسن بن
 الصباح وفتيانه . وربما كان عملهم هذا مبعثاً لخصومتهم على
 الفتوة العسكرية التي ذكرناها . وربما كانت أيضاً هذه الفتوة

العسكرية سبباً في نظام الفروسية عند الإفرنج . وقد اشتهر بهذا النوع الخليفة العباسي الناصر لدين الله . فإنه نظم الفروسية والفتوة وقال فيه أحد المؤرخين « إنه شيد بنيانها ، ومهد أركانها ، وألف أحزابها وأرشد طلابها وأظهر أنوارها وأوضح برهانها ، فبطلت النظم ، إلا ما شيده وبناه ، وتعطلت المعامل إلا ما اختاره واصطفاه ، فهو شجرة الفتوة ، وإمام الرحمة ، فواصل وأوصل وأحسن وأجمل ، وبه انتشر علم الفتوة بعد أن كان منتكساً وميزهم على من سواهم بعد أن كانوا فرقاً » ، وجاء في تاريخ ابن الفرات « إن الناصر لدين الله كان يميل إلى رمى البندق ، والطيور المناسيب ، ولبس سراويل الفتوة . وكان سائر ملوك الأطراف يسابقونه في رمى البندق وفي الفتوة . فبطل الفتوة في البلاد جميعها إلا من لبس منه السراويل ، ورمى له ، فلبس سائر ملوك الآفاق سراويلات الفتوة له ، ودعوا له في رمى البندق ووصل رسول له إلى حماة في أيام المنصور الأيوبي صاحب حماة وأمره بأن يلبس للخليفة ويلبس الأكابر له .

وكان قاضي حماة في ذلك الزمن القاضي برهان الدين أبا

اليسر . فأمره الملك المنصور بلبس سراويل الفتوة في المجلس ،
 فلبسها ، ولبسها جماعة له . وكذلك منع الدعوة بالبندق إلا له ،
 والطيور المناسبة في جميع البلاد إلا له .

وأجاب الناس بالعراق وسائر الأمصار ما خلا رجلاً واحداً
 رامياً بالبندق من أهل بغداد فإنه امتنع من إجابته وهرب من
 العراق وألحق بالشام . فأرسل إليه الخليفة يفرجه بالأموال الجزيلة
 فلم يرض ، وقال يكفيني فخراً أنه ليس في الأرض أحد لا يرى
 عن الخليفة إلا أنا .

وجاء في كشف الظنون « إن الاحتفال بدخول الشاب في
 سلك الفتیان على عهد الناصر لدين الله كان مصحوباً بشرب
 كأس الفتوة ، كما أخذ الناصر بجنده بالتدريب المتواصل على
 فنون الرياضة البدنية المختلفة » .

وقال ابن تغرى بردى في تاريخه « إن الناصر لدين الله أرسل
 في سنة ٦٢٢ رسلاً إلى نور الدين وإلى الملك العادل شقيق
 صلاح الدين وإلى ابنه الملك الصالح وإلى الملك شهاب الدين
 حاكم غزة ومعهم كأس الفتوة وسراويلها لكي ينتظموا في سلك

فتيانه . وكأس الفتوة هذه ليست نبيذاً ولا خمرأ ، وإنما هي ماء
وملح » .

وقد ادعوا إن للفتوة سنداً يتصل إلى علي بن أبي طالب
ونحن نشبهه وإن لم نشق به .

أبو الفضل بن الترهان
 النعس سلمان
 شبيل
 الفضل بن زياد الفارسي
 الفضل
 الملك أبو كاليجار
 الملاميراوي
 ناصر الدين بن أبي نعمة
 أبو علي الصوفي
 مهني العلوي
 نعمان
 أبو الحسن بن الشاربان
 أبو بكر الجحيش
 عمر الرهاض
 علي بن دغيم
 عبد الجبار بن صالح
 الخليفة الناصر لدين الله

علي بن أبي طالب
 سلمان الفارسي
 صفوان بن أمية
 حذيفة بن اليمان
 المقداد بن الأسود
 أبو العز التوبي
 الحسن البصري
 الحافظ الكندي
 عوف الكنائي
 أبو مسلم الخراساني
 الشريف أبو العز
 هلال النهائي
 بهرام الديلمي
 روزبة الفارسي
 الأمير حسان بن ربيعة المخزومي
 الأمير جوش الغزاري
 أبو الحسن النجار

* * *

على كل حال شاع نظام الفتوة العسكرية في هذا العصر ،

ووضعت له نظم كثيرة . وما يدل على انتشارها الفتوى التي أصدرها ابن تيمية ، وهل هي حلال أم حرام . وهل للفتوة أصل في الشريعة أم لا ، وهل أحل أحد من الصحابة أو التابعين أو من بعدهم من أهل العلم هذه الفتوة ؟ وقد أجاب ابن تيمية عن هذه الأسئلة فقال : إن لباس الفتوة وإسقاء الملح والماء باطل لا أصل له . ولم يفعل هذا رسول الله ولا أحد من الصحابة ، ولا على بن أبي طالب ولا غيره من التابعين . والإسناد الذي يذكرونه عن طريق الخليفة الناصر إلى عبد الجبار إلى تمامه إسناد لا تقوم به حجة . وفيه من لا يعرف . وما ذكر من نزول هذا اللباس من السماء في صندوق هو من أظهر الكذب باتفاق العارفين .

وكذلك مما يدل على انتشارها أن ابن الوردي الشاعر المشهور علق على فتوى في الفتوة بقوله : قد غاظني حتى هاضني وحنقني حتى خنقني ما أحدثه أهل الجهل والابتداع ، وسكت عنه العلماء حتى شاع في الرعاع وذاع ، وهي البدعة التي يجب إعفاء رسمها ، والنكرة المعروفة بالفتوة . وهي ضد اسمها ، وكيف

لا ، وقد عكف عليها أتباع الضلالة ، ودعا إليها الجهاال وأهل
البطالة ، يجمعون لها الجموع من الأنباط ، ويحضرها المرد وأهل
اللواط ، فمنهم من يتصابي على سنه ، ومنهم من يمشى على بطنه ،
وإن تمنع ذو سطوة أجابوه بسكين وتكاثروا عليه ، وإن
أضمرت كلمة الحق ظهروا ، ما أحقهم بالنفي عن الجنس ،
وما أولاهم بالكبس ، وجعلهم كأمس . كبيرهم العاص يزيد
تنبهاً على الفرات ، وهو عند الشريعة صغير . فيتصدر فيهم بغير
علم ولا هدى ، ولا كتاب منير . يلبسهم لباس شر ، ولباس
التقوى ذلك خير . ويسقيهم ماء له بالملح المذاب ، وبشس
الشراب ، فيشقيهم بما يسقيهم ، ويطغيهم بما يعطيهم ويمد لهم
نحواناً ، يجمع فساقاً ونحواناً ، جمع ثمنه من القمار والدبر والحوك
والنجامة ، والكنس والحجامة . واشترط شروطاً ليست في كتاب
الله . والشيطان بغرور دلاه . وكما قال الشاعر :

ليس الفتى كل الفتى عندنا إلا الذي ينهى عن الفحش
يأتى إلى الإسلام من بابه ويتبع الحق بسلا غش
ليس الفتى من ضرب بالسيف والسكين . الفتى من أطعم

المسكين الضعيف والمسكين . وليس الفتى من أقام الشنائع ،
 وشهر على الأمة السلاح ، فالفتى من جمع الكلمة ودعا إلى الإصلاح .
 فإن احتج للفتوة بأخذها عن الخليفة ، قلنا إن صبح فبدعة
 أحدثت كتقيل العتبة الشريفة ، وإنما يصح الاقتداء بالخلفاء
 الراشدين الذين أخذ عنهم العلماء الدين .

وكم أفتى بتحريم الفتوة عالم وكم ولى ، ولو صحت عن أمير
 المؤمنين لكانت فى القوة كجلمود صخر حطه السيل من عل .
 ولو لا خوف التطويل لذكرت ما عليها من دليل . وقد سماها
 بعض شياطين الإنس فتوة ، قصر الله عمره فلا حول ولا قوة . .

وقد ورث هذه الفتوة بهذا المعنى بعض المماليك فى مصر ،
 فإنهم كانوا يتعلمون الأعمال الحربية ويتمرنون عليها ، ويتخذون
 من الصيد وسيلة لتعلم الفروسية . وفى عصر من العصور كان
 هؤلاء المماليك ينقسمون إلى قسمين ، ذى الفقارية والقاسمية ،
 واتخذوا لذلك شارات ، فالفقارية اتخذت شعارها البياض
 فى الثياب والركاب ، حتى أوالى المأكولات والمشروبات ،

والقاسمية اتخذت شعارها الحمرة في كل شيء من ذلك . وكان بين الفريقين من الفروسية والألعاب والقتال ما كثر ذكره في الجبرتي وغيره .

ويقول الجبرتي أيضاً : إن القرن الثاني عشر استهل وأمراء مصر فقارية وقاسمية . وكان هؤلاء المماليك يشترون المماليك الصغار أو يأسرونهم ويعلمونهم حسب استعدادهم . ويقسمونهم أقساماً ، قال المقرئى : أول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن ، فكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ، ويأخذ في تعليمها كتاب الله ، ومعرفة الخط والقرن بآداب الشريعة ، وملازمة الصلوات والأذكار .

فإذا شب الواحد من المماليك ، علمه الفقيه شيئاً من الفقه ، فإذا صار إلى سن البلوغ ، أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمى السهام ولعب الرمح ونحو ذلك .

فيتسلم كل طائفة معلم ، حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه . وإذا ركبوا إلى لعب الرمح ، أو رمى النشاب ، لا يجسر جندى ولا أمير أن يחדشهم أو يدنو منهم ، وبعد ذلك

ينقل إلى الخدمة ويتنقل في أطوارها رتبة بعد رتبة ، إلى أن يصير من الأمراء . فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه ، وامترج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه ، واشتد ساعده في رماية الشباب ، وحسن لعبه بالرمح ، ومرن على ركوب الخيل . ومنهم من يصير في مرتبة فقيه عارف ، أو أديب شاعر ، أو حاسب ماهر . وإذا اقترف ذنباً أو أخل برسم ، أو ترك أدباً من آداب الدين أو الدنيا عوقب عقوبة شديدة بقدر جرمه ولذلك كانوا سادة يدبرون الممالك ، وقادة يجاهدون في سبيل الله .

وبلغت عدة الممالك السلطانية في أيام الملك المنصور قلاوون ستة آلاف وسبعمائة ، فأراد ابنه الأشرف خليل تكميل عدتها عشرة آلاف مملوك . وجعلهم طوائف . ثم شغف الملك الناصر بجلب الممالك ، وبعث في طلبهم من سائر البلاد وبذل الرغائب للتجار في حملهم إليه ، ودفع فيهم الأموال العظيمة . وبلغت نفقات الممالك كل شهر إلى سبعين ألف درهم ، ثم تزايدت حتى صارت في سنة ٧٤١ مائتين وعشرين

ألف درهم .

وانتقلت الفروسية في الحروب الصليبية إلى الغربيين ، وثار
جدل طويل بين الباحثين ، هل انتقلت الفروسية الغربية من
الفروسية العربية مما شاهدوا من مثل صلاح الدين ونور الدين
وأسماء بن منقذ ، أو هم أخذوها من التقاليد والعادات الألمانية ؟
ولا مجال هنا لسرد حجج كل فريق وكل الذي نريد أن نقوله
إن الفروسية سواء كانت عربية أو غربية تتضمن الشجاعة
والإتيان بأعمال البطولة والكرم والسماحة والعفو عند المقدرة ،
واحترام المرأة ، ووفاء العهد وحماية الضعفاء . وهذه كلها صفات
الفتوة العسكرية .

أما الفتوة الكرمية أو كما يسمونها الجودية فتتجلى فيما حكاه
ابن بطوطة في رحلته إذ قال : إن هذا الإقليم المعروف بالأناضول
من أحسن أقاليم الدنيا وقد جمع الله فيه ما قد فرق من المحاسن في
كل باب ، فأهله أجمل الناس صوراً ، وأنظفهم ملابس ،

وأطيبهم مطاعم ، والفتيان بجميع البلاد التركمانية الرومانية في كل مدينة وقرية

ولا يوجد في الدنيا مثلها احتفالاً بالغرباء وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الجوائح . والأخذ على أيدي الظلمة ومن لحق بهم من أهل الشر . ويسمون الفتى « أخى » فيقولون أخى عز الدين وأخى علاء الدين وأخى على بك أى الفتى فلان . ويسمون الفتوة (أخية) على وزن شهية ويقول ابن بطوطة ما مفاده إنه في كل بلد دخله في الأناضول وجد هؤلاء الفتيان وهم منقسمون أقساماً بحسب حرفهم ، فالحلاقون والبنزازون إلخ .. ولهم شيخ عليهم وهم زاوية نظيفة في كل بلدة ، مفروشة بالبسط وهم يشتغلون في صناعتهم بالنهار ، ثم يعطون ما كسبوه إلى شيخهم وهو يحضر لهم الطعام والفاكهة والحلوى ، وهم يفرحون بإضافة الضيوف والغرباء فهم على هذا الوضع أشبه ما يكونون بنقابة عمال يعيشون عيشة اشتراكية . وكان ابن بطوطة كلما دخل بلدة من بلاد الأناضول سأل عن الأخية ، وكثيراً ما حكى أن أهل هذه الأخية تنازعوا ، وقد أشرف نزاعهم على الحرب ، من أجل

تراحهم في طلب ضيافته . وقد عثر على وقفيات كثيرة تثبت أن الأغنياء كثيراً ما وقفوا الأوقاف الكثيرة على هذه الأخيات . فمثلاً وجد في إحدى الوقفيات أن هذا الغني وقف أملاكه على أولاده على أن يكون في قرب مرقده زاوية ولتلك الزاوية شيخ وناظر من أولاده الذكور ثم الإناث وأن يصلي الشيخ فيها خمس صلوات يدعو له في عقبها ، ويذكر الله في ليلة الجمعة والإثنين وبعد صلاة الصبح تقرأ سورة يس وبعض الأوراد . وشرط الواقف أن يكون الشيخ صالحاً متقياً متورعاً ، صاحب عزلة وقناعة وصاحب أخلاق حميدة ، ويجلس في الزاوية كل يوم ، ويعطى له من الغلة في كل يوم درهم ، وما بقي بعد ذلك يصرف على المسافرين على قدر الإمكان وهكذا من الوقفيات ، بعضها على المستشفيات ، وبعضها على ضيافة الضيوف وقد عثرتُ على ميزانية لأخية من هذه الأخيات . صورتها ما يأتي :

الوارد

بدلات إيجار	٧٦٥٠
أرباح نقد	٧٩٠٠
بدل حصة من الأوقاف	٥٥٠
الفائض من العام الماضي	١١٠
من الوصايا	٥٠٠
بدلات إطفائية	٩٠٠
دخوليات	٢٧٥
تبرعات الأصناف	٢٧٠٠
إعانات	١٢٥٠
أشجار	٧٥
المجموع	<u>٢١٩١٠</u>

المنصرف

للتعمير والترميم	٨٠٠
بدل الدكان المبتاع	٢٠٥٠
أجرة الثلج في موسم الصيف	٧٠٠
أجرة لقراءة المنقبة النبوية	٦٠٠
مصاريف الأيام الثلاثة .	١٥٥٠٠
فحم لفقراء البلدة وأهل الصناعة	٦٨٠
خبز للفقراء في رمضان	١٢٠٠
باصمة للأيتام والأرامل في العيدين	٦٠٠
أجرة التداوى لفقراء أهل الحرف وعائلاتهم	٣٥٠
للتجهيز والتكفير	١٧٠
للمسافرين	١١٠٠
الصدقات اليومية	١٨٠٠
معاونة للواعظين في الشهور الثلاثة	٢٥٠
لأدلاء الحرمين والشرفاء والشيوخ	٨٥٠

لصرة الحرمين	٤٠٠
لترميم طاش كوبرى	٣٨٠
معاونة لحسن أغا المحترق دكانه	٣٥٠
أجرة القربان	١٠٠
لإيقاد القناديل في رمضان والليالى المباركة .	٤٥
للختم الشريف	٣٠٠
لقراءة البخارى الشريف والشفاء	٣٥٠
لتعمير زقاق السوق	١٥٠
أجرة الحاكم للنظارة	٢٥٠
أجرة التولية	١٢٠٠
لمعلمى مكاتب الصبيان	١٥٠٠
للفحم والحصر للمكاتب	٥٠٠
الأجرة السنوية للمنادى	٣٦٠
لناظر الماء	٤٥٠
لحارس البلدستان	٢٤٠

أجرة للإطفائية	٢٤٠
مصاريف اللاونجة	٦٠٠
المجموع	٢٠١١٥

يؤخذ من هذا أن أكثرها مصاريف للخيرات المختلفة حسب عقليتهم في زمانهم ، ولا يستصغرن قارئ هذا المبلغ لأن المال لا يقدر بالعدد ولكن بقدرته على الشراء كما يقول الاقتصاديون ، وقد كان هذا المبلغ في زمنه يساوى أضعافه في زماننا ، وهذا هو الوارد والصادر من أخية واحدة ، ومثلها كثير .

والمؤرخون الأتراك ترجحوا لبعض أصحاب الفتوة وسموا الفتى أخى فلان فنى بعض كتبهم مثلا أخى حسام الدين ، وهو صاحب الفتوة والمروءة والمعروف بالسخاء والشجاعة والزهد والعبادة . وإطعام الطعام للمساكين وإكرام العلماء والفقهاء ، وحسن السيرة وصدق الحديث . قليل الكلام . لا يسمع منه أحد كلمة كذب ولا غيبة . لا يخوض فى كلام لا طائل تحته أمر بالمعروف ناه عن المنكر . لبس الفتوة من أيه سيد شمس الدين . وأخذ منه الفتوة خلق كثير . مات فى شوال سنة

٦٩٥ . ويقولون أيضاً أخى كمال الدين ، وهو صاحب الفتوة والمروءة ، معروف بحسن الخلق والديانة والتقوى ، متواضع ، خادماً للفقراء ، حمول ، ساع فى حوائج الناس ، له الكلمة عند السلاطين والأمراء والكبراء . محبوب الخلق والخلق ، لبس الفتوة من أخيه « أخى حسام الدين » إلخ . . .

فرى من هذا أن هذه الفتوة تشبه نقابات العمال ، على شرط أن تكون اشتراكية . وقد كانوا ينظمون هذه الصناعات من مبتدئ تلميذ وصانع ورئيس وهكذا . وهم يشترطون شروطاً فى كل مرحلة فالمبتدئ وإن شئت فسمه التلميذ ، كان يبقى عدة سنين بلا أجر ، ويعمل أهله أنفسهم بأنه سوف يكون عاملاً ثم تدفع له أجره كل أسبوع مناسبة لمهارته . ولكنه يستمر حاملاً أسم أبيه إلى أن يدخل فى سن الرجولة ، أو يصل فى صنعته إلى حد الإتقان ، فيسمى صانعاً ، ولكن لا يسمح له أن يفتح محلاً وحده لحسابه ، إلى أن يدشن الصانع ، ويعترف بأهليته وتسمى هذه العملية فى لسان الأتراك « عملية الشد » ولا يشد إلا إذا كان مبتعداً عن المنكرات ملتجياً . وإذا استعد

للشد أعطى عرقاً أخضر ، ومعنى هذا أنه يجب عليه أن يولم
وليمة لرفقائه . والغالب أن يكون العرق الأخضر من الريحان .
والعادة أن شاويش الحرفة يقطع أول عود من شجرة خضراء يراها
إما ريحانة أو غيرها ، فيأخذ الصانع منه العرق ويقبله . ويضعه
على رأسه فيأخذه الشاويش عند ذلك إلى شيخ الحرفة ويخبره
بأمره . فيقيدون اسمه مع زملائه الذين يستعدون للشد أيضاً فيدعو
رفقائه وشيوخ الحرفة وشيوخ المشايخ . والشد يكون في أحد
البساتين ليلاً أو نهاراً ويتبادل معهم شيخ الحرفة السلام ثم يقول
النقيب : « يا إخواني » لنبدأ عملنا . فيصمت الجميع ويأخذه
الشيخ إلى غرفة ثانية ويشده بطريقة معينة ، ذلك أن يحضر
الطالب مكتوف اليدين ويوقفه الشاويش في الوسط على بساط
أخضر ويجعل إبهام رجله اليمنى على إبهام رجله اليسرى ، ثم
يقول النقيب للشاويش . اجعله يقرأ الفاتحة بصوت عال .
ويكون جميع الحاضرين جالسين على ركبهم ، مطرقين رؤوسهم ،
ثم يطلب النقيب من العامل الفاتحة ثانية ، ثم يذكر النبي صلى
الله عليه وسلم ويصلي عليه ثم يتلو الصانع الفاتحة مرة ثالثة فبعد

أن يفرغ منها يسلم النقيب على الحاضرين من الزوار ، ويسلم سبع سلامات ، سلاماً على الحاضرين ، وسلاماً ثانياً على أهل الحرفة وشيوخها وسلاماً ثالثاً على أهل الميمنة وسلاماً رابعاً على الميسرة ، وسلاماً خامساً على السادات ، وسلاماً سادساً على الإصلاح ، وسلاماً سابعاً على الأحباب ... ثم يلتفت إلى المشدود ويقول له « أوصيك يا من تخاوى أو تعاهد بأداء فروض رب العالمين ، وأن ترعى عهدك وشذك وسيشهد عليك حفظة السماء ، وستكتب من يضيعة من المبعدين ، وأختم كلمتي بمدح أحمد المختار أمام العالمين ، آمين ، يا رب العالمين .

ثم يوثق النقيب بينهم ميثاق الأخوة ، فيعتبر أهل الحرفة المشدود كأنه أحدهم ، وأنه أخ لهم ، وربما فضله على الأخ الحقيقي وبعد ذلك يعين أحد الحاضرين أباً للمشدود على حسب الصنعة التي التحق بها ويكون هذا أباً له والصانع ابنه ، ثم يأخذ شيخ الحرفة في نصيحة المشدود ، ويقول — يا بني — إن جميع الحرف أهلها أمناء على الأعراض والأرواح والأموال . والأمانة هي الدين ، فكن صادقاً وأميناً . واعلم أن « كارك »

مثل عرضك . حافظ عليه بكل ما تملك . وإذا استلمت أموال
الناس فلا تفرط فيها وإياك أن تخون أهل الحرفة والحائن مشول
أمام الله . ثم يلتفت إلى الحاضرين ويسألهم ، هل هو يستحق
الشدة وأن يكون صباناً ؟ فيقولون - نعم . وحينئذ يأخذ عليه هذه
العهود ويركع أحدهما إزاء الآخر نصف ركعة بحيث تمس
الركبتان اليسريان الأرض ، وتنشئ اليمنان نصف ثنية ، ويقرب
بعضهما من بعض حتى يتلاصق الإبهامان اليمنان ويمسكان
بيد بعض مسكة خاصة معروفة ويتعاهدان على الإخاء . ثم
توزع الهدايا الموضوعة في صينية وهي للنقيب لوح صابون ،
وقطعة من الشاش مطرزة ، وخلة وعرق أخضر ، ومنهم من
يضيف إلى ذلك كيساً لوضع التباك ومسبحة . والصابونة رمز
لتنظيف اليدين من السرقة ، والشاشة لمسح الفم ووقاية الأثواب
والخلة لتنظيف الأسنان ، والعرق الأخضر لترال به رائحة الأكل
من اليد . ثم يهنا المشدود ، وترتفع الأصوات بالتهليل ، ويقولون
مراراً ، صلوا على عيسى وموسى وهكحول العيزين . وقد تعد
لذلك وليمة بعدها الصانع ويراعى فيها أن تكون بسيطة ، ويسمون

الأكل « التمليح » أى أكل الخبز والملح . والملح من قديم رمز
للتعاقد والوفاء بالعهد .

وللشد ضريبة تبلغ أربعين فرنكاً إلى مائة فرنك . أما تولية
الشيخ أو النقيب فلها شعائر أخرى لا نطيل بذكرها .
وهناك مجلس أعلى يشرف على هذه الأعمال ، ويسمى
« المجلس الكبير »

فيجتمع الإخوان كل شهر ، وينتخبون منهم رئيساً من
اختصاصه سماع الشكايات والفصل فى المنازعات التى تقع بين
أهل الحرف ، والنظر فى مصالح أهل الحرفة .

ولهم اجتماع آخر سنوى يتبدىء فى أول شهر مارس ، يجتمع
كل يوم من أهل صناعة خاصة وينظرون فى أمورهم ثم يجتمع أهل
الحرف جميعاً ويعلن الاجتماع قبل ١٥ يوماً ويحضر جدول
الأعمال ، ويحضر فيه أهل أربع وعشرين صناعة ، ويدعى
من عداهم من عامة أهل البلد ويقام مطبخ عظيم يعد الأكل
لجميع الحاضرين . فإذا جاء وقت الطعام يصطف كل أهل
حرفة وحدهم .

وإذا أرادت الحكومة تكليف أهل الحرف بشيء أو النظر في أمر من أمورهم ، دعت هذا المجلس ليكون واسطة بينها وبين العمال . ولكل حرفة صندوق خاص يتولى المتولى ، أى الأخصى إدارته ، ويسأل عنه . ويوجد في كل صندوق ستة أكياس . كيس أطلس توضع فيه الحجج المبينة لأوقاف الصندوق وكيس أخضر تحفظ فيه مسائل الأخوة ، وكيس منسوج تحفظ فيه نقود الأخوة ، وكيس أحمر تحفظ فيه سندات النقود وكيس أبيض تحفظ فيه سندات المصالح وكيس أسود تحفظ فيه سندات النقود التى لم تحصل .

ولهم رموز خاصة يتبادلونها عبد تبصب الفتى صانعا وعند انتخاب النقيب قد بينها كتاب « مفتاح الدقائق فى بيان الفتوة والحقائق » . ولما اطلع على هذه النظم التى كانت قائمة فى بلاد الأتراك وفى ممتلكاتها كمصر ودمشق كتب الأستاذ إلياس عبدالله قنصل هولندا بدمشق يقرر أن هناك تشابهاً كبيراً بين هذه النظم والتقاليد ونظام الماسونية وتقاليدها . فتساءل : ما هى العلاقة بين تلك النظم ، وهل أخذت الماسونية نظامها من نظم الفتوة ،

وما الدليل على ذلك ؟ وإذا لم تأخذ الماسونية من الفتوة فكيف تشابهت التعاليم ؟

ورجا الباحثين أن يجيبوه عن أسئلته ولكن لم أر بحثاً يجب على هذه الأسئلة . وربما كانت هذه النظم ترجع إلى عهد الفاطميين . ففي صبح الأعشى أن الفاطميين ألفوا جماعة سموهم صبيان الخصاص ، وجعلوهم من أخصاء الخليفة . وسموا في عهد المماليك بالخاصكية ، وسموا في نظام الفتوة بالفتيان الخاصكية . وفرقة أخرى تسمى صبيان الحجر وهم جماعة من الشبان يناهزون خمسة آلاف وقيمون في حجر منفردة . ولكل حجرة اسم خاص . فبعضهم يسمون ممالك الطباقي ويسمون في نظام الفتوة فتيان الطباقي .

وبعضهم يسمون طوائف الأجناد ، تنسب كل جماعة منها إلى صاحبها كالحافظية والآمرية من بقايا الحافظ والامر . وكالحيوشة والأفضلية من بقايا أمير الحيوش وولده الأفضل . وبعضهم إلى أجناسهم . كالأتراك والغز والديلم . ولكل طائفة قواد . وطائفة كانت تسمى الفداوية ، تخصص لأعمال الفداء .

كالإسماعيلية فهذه الطوائف وضع ما يقابلها على ما يظهر عند
السنة اتقاء لشروورها كما فعل الناصر لدين الله . ومن هذه
انثقلت إلى الأناضول وغيرها من البلاد التركية . ولكن تغيرت
أحوالها بتغير البيئة وتغير الزمان والمكان وربما كان بالجمعية إخوان
الصفاء وهي جمعية شيعية معروفة إحياء بتسمية ما بعدها بالألحوة
والله أعلم .

* * *

وفي عصرنا هذا عرف في كل حي من أحياء القاهرة
والإسكندرية بعض الناس الفتوة ، فيقال فتوة المنشية ، وفتوة
الجمالية ، وفتوة الحسينية وهي تسمية بالمصدر ، كما يقال رجل
هذيل .

والفتوة في العرف شاب شهم نبيل شجاع ذو مروءة يفضل
إخوانه في كل هذه الصفات .

ومن قبيل ذلك ما حكاه الجبرتي عن حجاج الحضري فقد
كان له بوابة قرب السيدة عائشة تسمى بوابة حجاج ، وكان
زعيم الحضرية ، وكان فيه هذه الصفات التي ذكرناها في

الفتوة . وكان أهل حرفته يسمعون كلامه أكثر مما يسمعون كلام الوالى . ولذلك شنقه الوالى تأديباً لأتباعه من غير أن يكون جنى جناية . وقد شاهدت ابنته فى حارتنا العبادية بالمنشية ، وفيها بعض صفاته ، وفيها أيضاً قوة ممتازة فى لسانها تغلب به فى السباب أهل حارتها .

ومن ذلك ما حكاه الجبرتى أيضاً فى ترجمة الشيخ حسن الكفراوى ، فقد كان صديقاً للشيخ صامودا المنجم ؛ فرأى أحد المماليك على عضو زوجته كتابة ، فسأها عنها فقالت له قد كتبها الشيخ صامودا ليحببك فى ، فقال لها إنه إذا رضى أن يطلع على عضوك ، ثم أمسكه وقتله وشهر به وبالعلماء . وشهر بصديقه الشيخ الكفراوى . فاضطهد الشيخ اضطهاداً كبيراً أُلجأه إلى أن يحتسب بفتوة حى الحسينية ، إذ كان الشيخ يسكن فيه وهو الحاج عمر الجزار ، ليمنع عنه أذى الناس . وتزوج ببنته . ويمتاز الفتوة بهذه الصفات التى ذكرناها وبأنه يتبجح بشجاعته ، ويؤذى من لم يحتم به . وزفة الحى لا تخرج إلا بحمايته وضمانته ، فيتصدر زفة العريس أو المطاهر هو وأتباعه .

عليهم الخمر والحشيش . وكان هؤلاء الفتوات يسمون أيضاً
البلطجية . وفي الإسكندرية يسمى كل واحد منهم « أبا أحمد »
وفي سوريا « قبضايا » .

وقد كان هذا آخر عهدنا بالفتوة والفتيان بعد أن كان لقباً
جَمِيلاً . ولواستقبلنا من أمرنا ما استدبرنا لسمينا فرق الكشافة بنظام
الفتوة لأنها به أليق ، والاسم أجمل ولكن ما فات لن يعود .
وهؤلاء الفتوات كان لهم أثر كبير في إقلاق راحة الفرنسيين
أو الحملة الفرنسية على مصر ، فإنهم استطاعوا أن يقضوا
مضاجعهم ويقلقوا راحتهم ، ويفسدوا حكمهم ، وقد جاء في
الجبرتي أن الفرنسيين أرادوا أن يفرضوا بعض الضرائب على
الأملاك والعقارات ، ونشروا إعلاناً بذلك ، فلما أشيع ذلك
كثر لغتهم واستعظموه ، فتجمع الكثير من الغوغاء وعزموا على
الجهاد وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح ، وخصوصاً على
حسب تعبيره « حشرات الحسينية » وزعر الحارات البرانية وهم
يصيحون « نصر الله الإسلام » « والزعر هم الفتوات أو الشطار
فكلها مترادفة » . وذهب نحو الألف أو أكثر إلى بيت القاضي ،

ويرون إنه لا عار على الفتوة أن يحبس ويسجن ويقتل لأن هذه كلها زكاة ما وهبه الله من القوة وقد سمعت أن الفتوة من هؤلاء نصح أن يترك هذه الأمور ويستقيم فقال وما قيمة هذه الفتوة إذا . واستمر في طريقته . وسجن وعذب .

وكثيراً ما يكونون حشاشين أو سكرية على حد تعبيرهم . وإذا لعب بهم السكر أفسدوا ما شاءوا . وأكثر ما يظهرون أيام الأعياد وأيام شم النسيم ، فيعيشون في الأرض فساداً .

وأحياناً يتواعد فتوات أهل حين على المقاتلة في جبل الجيوشي بالقاهرة . فيطلعون الجبل وينتصب الصفان ، ويتضاربون بالنبايت وبالخجارة .

وقد ينخر بعضهم صريعاً أو جريحاً . وبعد انقضاء القتال يتصايحون ، فيصبح أهل المنشية نحن غلبنا أهل الحسينية ، نحن الجدةان ونحو ذلك أو العكس ثم يتواعدون على يوم آخر يتقابلون فيه . وإذا لم يحضر أحد الفريقين كان إعلاناً له بالهزيمة . ثم ضجت الحكومة من هذه الأحوال خصوصاً بعد أن دخلها الإنجليز واجتهدت في القضاء على الفتوات كما قضى

عليهم الخمر والحشيش . وكان هؤلاء الفتوات يسمون أيضاً
البلطجية . وفي الإسكندرية يسمى كل واحد منهم « أبا أحمد »
وفي سوريا « قبضايا » .

وقد كان هذا آخر عهدنا بالفتوة والفتيان بعد أن كان لقباً
جميلاً . ولواستقبلنا من أمرنا ما استدبرنا لسمينا فرق الكشافة بنظام
الفتوة لأنها به أليق ، والاسم أجمل ولكن ما فات لن يعود .
وهؤلاء الفتوات كان لهم أثر كبير في إقلاق راحة الفرنسيين
أو الحملة الفرنسية على مصر ، فإنهم استطاعوا أن يقضوا
مضاجعهم ويقلقوا راحتهم ، ويفسدوا حكمهم ، وقد جاء في
الجبرتي أن الفرنسيين أرادوا أن يفرضوا بعض الضرائب على
الأمولاك والعقارات ، ونشروا إعلاناً بذلك ، فلما أشيع ذلك
كثر لخطهم واستعظموه ، فتجمع الكثير من الغوغاء وعزموا على
الجهاد وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح ، وخصوصاً على
حسب تعبيره « بحشرات الحسينية » وزعر الحارات البرانية وهم
يصيحون « نصر الله الإسلام » « والزعر هم الفتوات أو الأشرار
فكلها مترادفة » . وذهب نحو الألف أو أكثر إلى بيت القاضي ،

وأوقفوا حجابيه ورجموه بالحجارة والطوب فلما بلغ الفرنسيين ذلك ذهب قائد منهم بجنوده وقد كان هؤلاء الفتوات قد حفروا المتاريس وترسوا بها وازداد الحال سوءاً وامتدت يد الغوغاء إلى النهب والخطف والسلب ونهبوا دور النصارى والشوام والأروام ، وسبوا النساء والبنات ، واختطفوا الأمتعة وقتلوا كثيراً من الجنود الفرنسيين ، فلما أصبح الصباح ، أحضر الفرنسيون جميع الآلات من المدافع والقنابر والبومبات. ولما ضربوها صاح الناس يا خفي الألفاف نجنا مما نخاف وذعروا من المدافع لأن أهل هذا الحى لم يروها من قبل ومع ذلك ظل هؤلاء الفتوات يقاتلون الفرنسيين وينهبون ويسلبون حتى ضاق بهم الفرنسيون ذرعاً . وهجموا على الأزهر وداسوه بالنعال وربطوا أفراسهم فى القبله . وأضاعوا كثيراً من الأنفس والأموال . ولم يستقر الأمر إلا بعد تعب كبير . وكان ممن اتهم بهذه التهمة رجل اسمه إبراهيم أفندى وتهمته كما يقول الخبرتى أنه كان قد جمع جمعاً من الشطار وأعطاهم الأسلحة . وكان عنده أيضاً عدة من المالك المخفين والرجال المعدودين فقبضوا عليه وحبسوه »

هذا ملخص عبارة الجبرتي بمعناها لا بنصها . وقد أطلال في ذلك كثيراً .

وهذه حادثة من حوادث كثيرة خرج فيها الفتوات أو الزعر أو الشطار أو الغوغاء على الفرنسيين وقتلوا منهم وجعلوا حكمهم للبلاد عسيراً مما يطول شرحه . ولذلك تعلم الإنجليز من هذه الحوادث فكتموا أنفاس هؤلاء الفتوات وقتلوهم أو سجنوهم وقلموا أظافرهم بأخذ الأسلحة منهم حتى العصي والسكاكين . ثم سلط عليهم الحشيش والخمر فذهب بأسهم . وقد أكثر أهل العلم والأدب من الكتابة في نظام الفتوة . وهذا بيان بعض ما ألف فيهم .

من ذلك كتاب الفتوة لأخي أحمد الأردبيلي ، وطرائف الطرف لمحمود بن محمد وآداب الأخي لشهاب الدين السهروردي وفصولاً في كتاب نغمات الأنس للجاني في مادة أخى ، وفصل في كتاب تاريخ أهل المظفر وبعض رسالات كتبت في الفتوة بالتركية ، وفصل في كتاب الأوامر العلائية في مدائح أصحاب الفتوة السياسية والأجواد وكتاب للمبارك بن خليل الخازندارى

المسمى آداب السياسة بالعدل الخ . . .
 وفي العصور الأخيرة ألف بعضهم كتاباً اسمه مذكرات
 فتوة .

وربما كان قريباً من نظام الفتوة في أيامنا هذه جمعية الإخوان
 المسلمين ، وهي جمعية أكثر أتباعها من الشبان المسلمين ،
 بدؤوا أمرهم بتعليم الشبان الفضائل عن طريق الدين ، والحق أن
 الناظر إليهم كان يراهم أميز من زملائهم من حيث الفتوة
 والرجولة والتخلق بالأخلاق الحسنة . ثم دعته الظروف المحيطة
 بهم أن يتحزبوا كما تحزب الشبان والتابعون للأحزاب الأخرى ،
 فتظاهروا كما تظاهرت الأحزاب الأخرى . وأيدوا الحكومات
 أحياناً وعارضوها أحياناً تبعاً للظروف والتعليمات ثم تطوروا تطوراً
 آخر ، فكان منهم محاربون ، وكان منهم فدائيون . فبدأوا يقتلون
 بعض من يخالفهم ، كما فعلوا في القاضي الذي حكم على
 بعضهم ، وبدأوا أيضاً ينسفون بعض بيوت الهيئات السياسية
 وبعض المحال التجارية الأجنبية ، ثم جهزوا تجهيزاً حسناً من
 قنابل وآلات استقبال وإذاعة . ونحو ذلك .

وكونوا من بعضهم نخلايا كخلايا الشيوعية ، لا يعرف
 أعضاء الخلية أعضاء خلية أخرى ثم اضطرت الحكومة المصرية
 لحلهم ، فكان من جزاء رئيس الوزارة الذى حلهم وهو النقراشى
 باشا أن يقتل ، فكان جزاء وفاقاً أن يقتل رئيسهم أيضاً ، وهو
 الشيخ حسن البنا . وكان من شأنهم أن جاهد بعضهم وأبلوا بلاء
 حسناً فى حرب فلسطين ، وفى حرب الإنجليز فى قناة السويس .
 وبذلك انقلبت من جمعية إصلاحية للأخلاق والنظام الاجتماعى
 من وعظ وإرشاد وتثقيف وتعليم ، ومعاونة للفقراء إلى نوع
 كالذى ذكرناه من قبل عن الفتوة العسكرية .

وفى نظرنا أنه قد أضعفها هذا التطور الأخير ، وهو التطور
 العسكرى ، فإنها بذلك قد زاحمت الأحزاب السياسية الأخرى
 وشاركتهم فى الرغبة فى الحكم ، فقاتلوهم وحاربوهم وبجبنوهم .
 وكان من رأينا أن يبقوا بعيدين عن المغامرات السياسية دعاء
 لإصلاح أخلاقى واجتماعى . ولو استمروا على ذلك لثبت بنيانهم .
 وامتد نفوذهم . ولكن لله فى خلقه شئون . ووجه الشبه بينهم وبين
 نظام الفتوة ظاهر حتى فى تنظيمهم ودعوتهم للإصلاح الاجتماعى

ومساعدتهم للفقراء والمساكين ، ثم في تسليحتهم الذى يشبه الفتوة العسكرية كالتى رأيناها عند الناصر لدين الله وأشباهه من رجال الحروب الصليبية ورجال الفروسية . وقد كان لهذه الجمعية أتباع فى الشام والحجاز والعراق ، يأتون بأمامهم ويتبعون تعاليمهم . وهم لا يزالون إلى يومنا هذا ، وقد عقد وكيل النيابة الذى ترفع فى قضية الخازندار مقارنة بين نظامهم ونظام الإسماعيلية وأطال فى ذلك ، والله بمستقبلهم عليم .

هذا ما يتعلق بسلسلة الفتوة من الجاهلية إلى الإسلام إلى اليوم . أما الكلام فى الصعلكة فإننا نرى التصعلك خفت بعد ذلك لسببين ، أولهما : أن الإسلام بتعاليمه نهى عن السلب وكان فى الغزوات المشروعة غنية عنهما فلم يمكن أن تكون الصعلكة نظاماً ثابتاً منتشراً .

والثانى : أن الفتوحات الإسلامية أدت عليهم الخير الكثير فمن كان يمكن أن يكون صعلوكاً أصبح يمتلك الجوارى والعبيد والدور والبساتين فلم يكن له حاجة إلى التصعلك الذى هو نتيجة الفقر والبؤس .

وربما كان الفقير الذي لا يملك شيئاً يجد في الزكاة التي فرضها الإسلام ما يغنيه عن التصعك الذي عرفنا أساسه وهذا لا يمنعنا من أن نرى هنا وهناك بعض اللصوص الصعاليك من البدو يخطفون وينهبون ويسلبون ويقطعون الطرق لكن في غير نظام .

ثم نرى إذا تقدمت الدولة العباسية جماعة سلايين نهايين يسمون العيارين أو الشطار يعيشون في الأرض فساداً ويعملون عمل الصعاليك في الجاهلية . غاية الأمر أن الصعاليك كانوا يعيشون في الأرض فساداً أيضاً ولكن يعوض فسادهم أنهم كانوا لا ينهبون إلا من ثبت شحه ودنائه وإذا نهبوا وزعوا ما نهبوه على أمثالهم بالتساوى . أما هؤلاء الشطار فكانوا ينهبون ما قدروا عليه ويتعدون على الأغنياء من غير تفرقة بين كريم ولئيم ثم لا يوزعون ما نهبوه .

يقول ابن جرير الطبري في حوادث سنة ٢٠١ هـ « إن الشطار الذين كانوا ببغداد والكرخ آذوا الناس أذى شديداً وأظهروا الفسق وقطعوا الطريق وأخذ النساء والغلمان من الطرق فكانوا

يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه فيذهبون به فلا يقدر أن يمتنع ،
وكانوا يسألون الرجل أن يقرضهم أو يصلهم فلا يقدر أن يمتنع
عليهم ، وكانوا يجمعون فيأتون القرى فيكاثرون أهلها ويأخذون
ما قدروا عليه من متاع وغير ذلك ، لا سلطان يمنعهم ، ولا
يقدر على ذلك منهم لأن السلطان كان يعتز بهم ، وكانوا
بطانته ، فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يرتكبونه ، وكانوا يجبون
المارة في الطرق وفي السفن ويأخذون الأجور على خفارة المساكن ،
ويقطعون الطرق علانية ، ولا أحد يقدر عليهم ، وكان الناس
منهم في بلاء عظيم ، فلما رأى الناس ذلك وما قد أخذ منهم ،
من متاع الناس في أسواقهم وما قد أظهروا من الفساد في الأرض
والظلم والبغى وقطع الطريق ، وأن السلطان لا يغير عليهم ،
قام صلحاء كل ربض وكل درب فشى بعضهم إلى بعض وقالوا
« إنما في الدرب الفاسق والفاسقان إلى العشرة ، وقد غلبوكم وأنتم
أكثر منهم ، فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحداً لقومتم
هؤلاء الفساق وصاروا لا يفعلون ما يفعلون من إظهار الفسق بين
أظهركم » وقام رجل من ناحية الأنبار يقال له خالد فدعا جيرانه

وأهل بيته وأهل محلته على أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأجابوه إلى ذلك ، وشد على من يليه من الفساق والشرار فمنعهم مما كانوا يصنعون وقاتلهم وهزمهم وأخذ بعضهم فصر بهم وحبسهم وسمى هؤلاء الآخذون على يد الفساق بالمتطوعة ، فترى من هذا أن عمل هؤلاء الفساق أشبه بعمل الصعاليك ، لولا أنه تنقصهم المروءة والنبل فعمل المتطوعة كعمل أهل حلف الفضول وقد ذكرنا قبل صلة حلف الفضول بالصعلكة

وربما عد ما يشبه الصعلكة عمل الزنوج في ثورتهم المشهورة بثورة الزنج فإنهم في الأصل كانوا زنوجاً يعملون في الكسح في المراحض . وقد سثموا بؤسهم وفقروهم فدعاهم داع إلى أن يثوروا على ساداتهم وإن يأنفوا الذل والفقر ويأخذوا من أغنيائهم ما يستطيعون وربما كانت هذه المروءة التي تنقصهم وتنقص الشرار سببها أن أكثر الشرار والزنج قد فقدوا عنصر العروبة فكانوا إما فرساً أو أتراكاً أو زنجاً ومن المسلم به أن العرب أميل إلى الكرم وكانوا في حياتهم يكادون لا يعدون فضيلة إلا الشجاعة والكرم . أما العناصر الأخرى التي ذكرناها فليس لها مثل كرمهم .

ولعل هذا هو السبب في أن الصعلكة أخيراً فقدت الكرم والنبيل .
 وكانت كلمة الشاطر تطلق على الخبيث الفاجر وفي
 القاموس « الشاطر من أعيأ أهله خبثاً » ثم أطلقت كلمة الشاطر
 على الماهر في أى صنعة وربما كان هذا المعنى قديماً أيضاً ففي
 ألف ليلة وليلة من يسمي الشاطر حسن أى الماهر وفي لساننا
 اليوم تطلق كلمة الشاطر بهذا المعنى . فيقولون في أمثالهم قيراط
 بنحت ، ولا فدان شطارة « أى مهارة » ويقولون « ما يقع إلا
 الشاطر » ويقولون على الفتاة « حلوة وشاطرة ولا لهاش بنحت »
 وهكذا .

فترى في هذا أن العلاقة بين الفتوة والصعلكة كانت في
 القديم . يجمع الفتيان والصعاليك بجامعة الشباب والنجدة غير أن
 الفتيان أولاد الأغنياء والصعاليك أولاد الفقراء
 وقد ألف الجاحظ فيما يحكى عنه رسالة في لصوص العرب ،
 ولكنها مع الأسف مفقودة ، وعقد صاحب محاضرات الأدباء
 فصلاً في اللصوصية وما يجرى مجراها . عدد فيه أنواع التلصص .
 وما رواه من شعرهم

وإني لأستحي من الله أن أرى
وأسأل ذياك البخيل بعيره
ويقول آخر :

وكم بيت دخلت بغير إذن
وكم مال أكلت بغير حل
ويقول آخر :

وعياية للعجود لم تدر أنني
وغادرت على ما احتازه فحويته
ولهم في هذا التلصص قوانين طريقة مثل عدم سرقة الخيران ،
واتقاء الحرم ، وإنما يسرقون مال البخلاء والغشاشين والجاحدين
للودائع ونحوهم .

ويقول بعضهم :

سأبغى الفتى إما جليس خليفة
وأسرق مال الله من كل فاجر
يقوم سواء أو مخيف سبيل
وذى بطنة للطيبات أكل

وكان أحد اللصوص ينصح زملاءه بالمران على السرقة ،
والصبر على الضرب ، ورواية أشعار الفرسان ، والتحدث بمناقب

الفتيان . وبأن يكون اللص جريئاً ، صاحب حركة وفطنة وطمع
وهم يقولون : إنهم أحسن حالا من الحاكم المرتشى ، والقاضى
الذى يأكل أموال اليتامى .

والتلصص أعم من التصعلك ، فكل متصعلك لص ،
وليس العكس فلا بد للمتصعلك من أن يكون ذا مروعة ، وألا
يسرق إلا من الأشحاء البخلاء ، ويعين الضعفاء كما ذكرنا قبل .
وأما فى الإسلام فقد اختفت الصعلكة كفرقة ، وظهرت
فرقة تشبههم وهم الشطار . احتفظوا بوسائل الصعاليك من سلب
ونهب ، ولم يحتفظوا بالغاية .

وظلت كلمة الصعلوك أيضاً على الألسنة تدل على الفقر
ومن أمثالهم « تروح فىن يا صعلوك بين الملوك » وهكذا تتطور
الكلمات كما تتطور الأحداث ويكون لها فى كل عصر معنى .
وبعد ذلك كله نتساءل : ماذا استفاد العالم العربى
من الفتوة والصعلكة فى عصوره المختلفة ؟ ونجيب عن
هذا السؤال فنقول : إنه استفاد فوائد كثيرة ، أولاً ،
إنه استفاد من الفتوة تقوية الناحية الفنية ، فقد كان

للفتيان مجالس يلجأ إليها المغنون ، ويتعرفون عليها ، ويحيون أوقاتهم فيها بالغناء ، ويجادلون فيها مطعمهم ومشربهم ، كالذى حكى لنا عن إبراهيم الموصلى ، فقد قصد إليهم وهم فى حماه ، وتعرف به إذ ذاك الخليفة المهدى ، فكان هذا سبب نعمته . وشهرته الواسعة فيها بعد .

ثانياً تأقلم معنى الفتوة فى الإسلام ، فكانت مصدراً لفصيلتين كبيرتين ، إحداهما الكرم ، كما رأينا فى زوايا الأتراك وحسن ضيافتهم كما حكى لنا ابن بطوطة . والثانية الفروسية .

وهذه الفروسية أتت فى العصر الجاهلى من أن الفتيان كانوا فى الجاهلية يعيشون عيشة فخفة ووجاهة ، ويودون السمعة الحسنة بالإغداق على الفقراء ، وخصوصاً الشعراء منهم ، ويتطلبون الثناء فكانوا يكرمون ، وينحرون الجذور ، ويشعلون النار للضيفان ونحو ذلك .

فلما جاء الإسلام كان فى تعاليمه ما يشجع الفتوة ، من مثل إعطاء الفقير ، ورفع الظلم عن المظلوم ، وإعلان

شأن المرأة ، والجنوح إلى السلم إذا جنح العدو إليه .
 ووصية أبي بكر لقواد جيوشه مشهورة في أن لا يقتلوا شيخاً
 ولا طفلاً ولا امرأة ، وأن يعاملوا أهل الذمة معاملتهم
 لأنفسهم ، وأن لا يحرقوا نخلاً . واستمرت تعاليم الفروسية
 هذه حتى أزهرت أيام صلاح الدين في الحرب الصليبية ،
 ونرى أن المسيحيين عند ما فتحوا بيت المقدس ، نكلوا
 بالمسلمين كل التنكيل وعذبوهم عذاباً لا مزيد عليه .
 فلما استعادها صلاح الدين قبل الفداء ، وأعتق من لم
 لم يقدر عليه ، وأطلق سراح كثير من النساء من غير مقابل ،
 وزادوا في حرية المرأة واحترامها لأنه كان لهم في الإسلام
 مثل حسن ، وهم بنو عذرة اللذين كانوا يحترمون النساء
 احتراماً شديداً ويحبونهن حباً أفلاطونياً ، وهو المسمى
 بالحب العذرى .

ومن قديم مجد العرب الخيل وأكرموها ، واعتنوا بتربيتها ،
 وإلى الآن تنسب إليهم الخيول العربية .
 فقد كانت أكبر الفضائل عندهم المروءة ، وهي

تمت بسبب قريب إلى الفروسية . وتقرأ في كتاب الأغاني
والعقد الفريد وأمثالها ، فتجد قصصاً كثيرة عن المروءة ،
من مثل قصص زيد الخيل ، وعمرو بن معد يكرب
والمهلهل . وليست قصة عنزة العبسي إلا نوعاً من أنواع
البطولة مملوكة بالفروسية . وكان اسم عنزة يشيع في السامعين
الشعور بالفروسية . حتى قصته نفسها من أنه كان ابن
أمة ، وكان منبوذاً لذلك ، فلما هوجم قومه أبي القتال لأنه
وضيع ، فحرره أبوه ، فأتى بالعجائب .

فلما أتت الحروب الصليبية رأينا أعمالاً كبيرة من
أعمال البطولة من مثل احترام النساء والأطفال ، وفك
الأسير ، كالذي يحكونه أن نصرانياً ادعى أنه عطشان
فلما أحضر له الماء زعم أنه خائف أن يقتل ، فلما حلف
له أنه لا يقتل حتى يشرب ، سكب الماء على الأرض
وطالب الحالف أن يبر بوعده ، فبر بوعده وأطلقه .
كذلك لم يكن عمل المسلمين في الأندلس بأقل فروسية
من أعمال المسلمين في الشرق . وكذلك أعمال الماليك

فى القاهرة ، وهم الذين حاربوا الحروب الصليبية الأخيرة ، كما
تدل عليه قصص ألف ليلة وليلة . وليس بعيد أن تكون
الفروسية عند الأوربيين قد استعيرت من الفروسية عند
المسلمين ، فإنها لم تظهر عندهم إلا زمن الحروب الصليبية
وقد أفادت الأوربيين فائدة كبرى ، فقد نقلت الجمعية
الأوربية من ظلم الإقطاعيين وحروبهم المستمرة ، إلى
مدنية قارة يسود فيها السلم . هذا إلى أنها قوت خصالا
خاصة أهمها ثلاث

(١) النجدة فى الحروب (٢) الدين

(٣) احترام المرأة .

وأهم من ذلك كله معاونة من يستحق المعونة ،
وبامتزاج النجدة الحربية والدين ، نشأت الرحمة ومعاونة
الفقراء والضعفاء ، حتى الرحمة بالحيوانات ، وأهمها الفرس .
وبامتزاج الدين واحترام النساء زاد تعلق المسيحيين
بالسيدة مريم العذراء . وقد ظهر من ذلك الحين فى العالم
المسيحى أعمال بطولة وآداب تتغنى بالفروسية ، وسعة

الصدر مع المخالفين في العقيدة .
أضف إلى ذلك . أن الصوفية تبنا فكرة الفتوة
وعدوها من الفضائل التي يحثون المريدين على التمسك بها ،
كالذي نراه في الرسالة القشيرية ، والفتوحات المكية وغيرها .
وجعلوا من مقررهم احترام النساء ، حتى ليأبون أن تصب
امراً على أيديهم ، وحتى ليأبون أن يؤذوا النمل والحيوانات
الضعيفة أي إيذاء ، وحتى يعدوا من أنواع الفتوة إزالة
كل عائق يعوق وصول الخير إلى مستحقه ، فإذا وجدوا
حجراً يعوق الماء أزالوه حتى يصل إلى النبات . وإذا وجدوا
إنساناً تعوقه عن الخير فكرة شريرة أزالوها عنه ، وإذا
وجدوا بؤساً يعوق الناس عن المعيشة عيشة راضية وكان
في استطاعتهم بذل المال بذلوه وهكذا . وظلت الفتوة في
كتب الصوفية تنمو حتى بلغت الغاية في كتب المتأخرين .
وحتى في أيامنا الأخيرة كان الفتوات الوضعيون
مصدراً للشهامة والنجدة لمن يستنجد بهم ، وحماية المرأة
والإغداق على الأصحاب إلى غير ذلك . بل كانوا هم

الدعاة إلى الوطنية والحماة للبلاد ، فقد أقلقوا الفرنسيين مدة احتلالهم ، وكانوا لهم مصدر قلق واضطراب كما ذكرنا قبل وخصوصاً حتى الحسينية ، فلما اجتمع عليهم الاضطراب في الداخل وحرب الإنجليز لهم في الخارج اضطروا إلى الخروج ، ولذلك تعلم الإنجليز هذا الدرس ، فكان من برنامجهم القضاء على الفتوات ، حتى لا يكونوا مصدر قلق لهم ، ولم يرضوا منهم أن يتسلحوا حتى بالسكاكين والحجارة ، وضيقوا عليهم كل المسالك ، وأذلّوهم بجميع أنواع الذل ، حتى زالت هيبتهم .

هذا شأن الفتوة . أما شأن الصعلكة فقد أفادت كثيراً من ناحية تخفيف ويلات الفقر في الجاهلية ، فقد كان الجاهليون ينقسمون إلى شيوخ قبائل ينعمون بالغنى والترف ، هم ومن اتصل بهم ، والباقيون هم رعاع لا يجدون ما يأكلون وأفراد القبيلة يحاربون ويقاتلون ويقتلون ويجرحون حتى إذا غنموا فخير الغنائم لشيخ القبيلة ، ولها اسم خاص

وهي الصفايا . أما أفراد القبيلة فلهم فئات الموائد . وهي حال بائسة تعسة . وربما كان من أقرب الأمثلة لذلك اليوم ما هو حادث في قبائل العراق . فقد وضع ثلاثة مشايخ أيديهم على نحو ثلاثة ملايين من الأفدنة ، يزرعها لهم أفراد القبيلة ، ثم الثروة كلها لهم . وبقى القبيلة همج رعاع فقراء تعساء . قلما يجدون ما يأكلون . ويقع هذا تحت سمع الإنجليز وبصرهم ، فيرضون عن هذا النظام ويشجعون علماء منهم بأن وضع ثلاثة من الرؤوس تحت أيديهم وإرضاءهم بالمال الوفير أسهل من إخضاع ملايين الناس ممن لا يجدون ما يأكلون .

ولا تخلو جماعة من هذه الجماعات البدوية الجاهلية من رقة الشعور ، خصوصاً من سمو الشعراء كعروة بن الورد ، والشنفرى . فهؤلاء لما رأوا هذه الحال حال منغمس في الترف لا إلى حد ، ومنغمس في الفقر لا إلى حد لم يرضوا عنها ، وآلوا على أنفسهم أن يأخذوا من الظالم للمظلوم ، وأن يقربوا مسافة الخلف بين الطائفتين ، ولذلك تركوا

من كان غنياً كريماً لأنه يؤدي ما عليه للفقراء ، ونقموا
على الأغنياء الأشحاء ، فكانوا يهجمون عليهم هم وأتباعهم
من رجال الحرب الشجعان ، ويسلبونهم نوقهم وسائر
أموالهم ، ثم يقسمونها على الفقراء قسمة عادلة من غير
محاباة .

ويتمدحون بسلبهم أموال البخيل وإطعامهم الطعام
للفقير . وماذا كانوا يفعلون غير هذا ، وهم يرون قوماً
في السماء ، وقوماً في الأرض ، قوماً يموتون تخمة ، وقوماً
يموتون جوعاً ، ففعلوا بذلك فعل الاشتراكية اليوم ، وزادوا
عليها أنهم كانوا يأخذون ما يأخذون بالقوة إذ ليس
هناك حكومة تنفذ ذلك بالضرائب .

وروى المؤرخون كثيراً من هذه الأحداث وخلقوا
بجانب ذلك أدباً رائعاً كالذي نراه في ديوان عروة وديوان
الشنفرى . ومن أجل ذلك لم يكن اسم الصعلوك منفراً ولا
مكروهاً ، بل كان الرجل يفتخر بأنه صعلوك لأن معناه
محقق العدل بالقوة ، وكان عملهم في السلب والنهب ليس

غريباً ، لأن السلب والنهب وإغارة القبيلة على القبيلة كان شائعاً مألوفاً ، حتى قال قائلهم في الإغارة :

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا
وقد ضعف شأن الصعلكة في الإسلام ، ولم يكن شأنها في الإسلام شأن الفتوة لسبيين .

أولها أن نظام الإسلام في أوله وزع الثروة بالزكاة أولاً ، والإحسان بما هو فوق الزكاة ، ثم بتوزيع الميراث على الأبناء والأقارب . حتى كان الميراث نصيب عدد كبير . وثانياً لوجود الحكومة التي تأخذ بيدها على يدى الغاصب السالب والناهب ، وقد جعلت عقوبة شديدة لمن يقطع الطريق فقال القرآن الكريم « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم » فقلت بذلك أعمال الصعلكة .

وليست الأعمال الاشتراكية التي تقوم بها إنجلترا

وأمرىكا اليوم إلا عملا منظماً من أعمال الصعلكة ، تجمع المال الكثير من الأغنياء ، ثم تصرفه فيما ينفع الجميع من بناء مستشفيات وملاجئ ومدارس مما اقتضاه العقل الحديث في التنظيم .

فهى فكرة صعلكة متبلورة .

ومن حين لآخر كانت تظهر فى الإسلام حركات تشبه حركات الصعلكة . كالذى فعله أبو ذر الغفارى فى الشام إذ نادى بالمساواة ، وأندى الذين يكتزون الذهب والفضة بالعذاب فتلا قوله تعالى « إن الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فيشرهم بعذاب أليم » وألب الناس على معاوية حتى شكاه لعمان فنفاه عثمان إلى الربرة .

وكالذى قبض على عتق قريب للرشيد إذ كان دخله اليومى مائة ألف درهم فى اليوم وقال له : إنى لأجد نصف درهم فى اليوم أقتات به ، وأنت تقبض مائة ألف لا تدرى كيف تصرفها .

وكان هؤلاء الصعاليك فضيلة وهي أنهم كانوا يأخذون ما يأخذون في عزة نفس وإباء وشمم ، علماً منهم بأن هذا حق من حقوقهم ، لا إحسان يصيبهم . ثم لا يستأثرون بما يأخذون ، بل يؤثرون به من كان بهم خصاصة . ولو أنصف العرب لا ستولوا على هاتين الفكرتين ونظموها وفلسفوها ، وجعلوا منهما مؤسسات تؤدي أغراضهما ، ولكن مع الأسف تركوهما فوضى ، لا يخضعان لترتيب ولا نظام .

لقد وزعت المدنية الحديثة فكرتي الفتوة والصعلكة على مؤسسات عجيبة ، فمثلاً أخذت من الفتوة نجدتها ، ومغوتها فوضعتها في نظام أطلقت عليه الكشف . وجعلت للإحسان نظاماً خاصاً حتى لا يعطى المال لمن لا يستحقه ولم تكتف بالمال يصرف على الفقراء ، بل أنشأت المستشفيات والمدارس والجامعات ، وأوجدت هيئات توجب عملاً لأهل البطالة وهيئات أخرى للتدخل في التراعات التي تقوم بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال إلى غير ذلك .

ونظمت الصعلة بضرب الضرائب ، وزيادة الجمارك
على الكماليات ونقصها على الحاجيات إلى غير ذلك .
وكلها داخلة في مفهوم الفتوة والصعلة .

اقرأ في هذه المجموعة

صوت أبي العلاء	د . طه حسين
أحلام شهر زاد	د . طه حسين
في بيتي	عباس محمود العقاد
الشيخ الرئيس ابن سينا	عباس محمود العقاد
المهدى والمهدية	أحمد أمين
الصعلكة والفتوة في الإسلام	أحمد أمين
خاتمة المطاف	على الجارم
أبو نواس	د . عبد الحليم عباس
دماء وطن	يحيى حقى
العشاق الثلاثة	د . زكى مبارك
سبيلولوجية الجنس	د . يوسف مراد
النسيان	د . أحمد فؤاد الأهواني
الحب والكراهية	د . أحمد فؤاد الأهواني
الوجودية والإسلام	محمد لبيب البوهى
الأمن والسلام في الإسلام	د . جمال الدين الرمادى
الغزالي	طه عبد الباقي سرور
الإمام المراغى	أنور الجندى
بنت قسطنطين	محمد سعيد العريان

شاعر الشعب

قصص الحب العربية

غرائب الرحلات

عود على بدء

غرام الأدباء

أبو زيد الهلالي

عبد الرحمن الجبرتي

ليلي العفيفة

نساء محاربات

أبو القاسم الشابي

جابر بن حيان

د . سامي الدهان

د . عبد الحميد إبراهيم

محمد عبد الغني حسن

إبراهيم عبد القادر المازني

عباس خضر

محمد فهمي عبد اللطيف

خليل شبيب

عادل الغضبان

صوفي عبد الله

رجاء النقاش

محمد محمد فياض

رقم الإيداع	١٩٨٦ / ٣٤٠٢
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٠٢-١٦٢٥-٥

١ / ٨٦ / ٢٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

اقرا

بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك
دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة
العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش
معهم .. كما عاش الآباء والأجداد ..
وتكوّن في مكتبتك موسوعة متفرقة في فروع
المعرفة المختلفة .

وإيماناً منا بأن القراءة هي أقصر
الطرق إلى الوعي والثقافة .. فقد يسّرنا لك
ذلك في إخراج جيد .. وسعر زهيد .

٢٠ / ٣٥٨١٠٣

قرش جنبيه
٣٥٠٠